جزء
١

أسرار النفس البشرية

بقلم

سيد تقي سيد حسين الموسوي

حفظه الله

كتاب
أسرار النفس البشريّة
الجزء الأوّل

للمؤلف
سيّد تقي سيّد حسين الموسوي
حفظه الله

www.taqimusawi.com

0096899419461

صندوق البريد ٩٣٠

الرمز البريدي ١١٤

سلطنة عُمان

المصادر

- كتاب معاذلة النفس لأفلاطون.
- كتاب السَّحر للدكتور يوشي ميكي مايدا يتضمّن محاورته مع مولانا الشيخ صادق العنقاء قدّس سرّه.
- كتاب زوايا الحياة المخفيّة لمولانا الشيخ صادق العنقاء قدّس سرّه.
- كتاب المجالس تأليف والدي السيد حسين العالم الموسوي قدّس سرّه.
- كتاب أصول الكافي ٧٤/١ للعلّامة الكليني، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، طبعة دار الكتب الإسلامية المعروفة، تحقيق غفاري، وهي في برنامج مكتبة أهل البيت.
- كتاب هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب ورفعناه مكانًا عليًّا للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب ما هو سرّ الحياة للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب وحدة الإرادة في الوجود للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب السموات السبع للمؤلف سيّد تقي الموسوي.

المحتويات

المصادر.....٥
المحتويات ٦
العرفان بالجميل ٩
المقدّمة ١٠
المشاهدات الحسّية والعقليّة ٢٣
معجزة بدن الإنسان.....٣١
معجزة جنين الإنسان.....٤٣
معجزة بيضة الدجاجة ٤٧
تجربة إبراهيم عليه السلام.....٥١
موجودات مجهريّة ٥٦
قوّة التصوّر والتمثّل ٦٠
إكسير السعادة.....٦٥
اللذّة العقليّة الكاملة.....٧٠
استقلال الروح.....٧٤
العناصر الأربعة في الحضارات القديمة ٧٩
العناصر الأربعة عند أرسطو ٨٣
عناصر الأرض والكون.....٩٠
عدد العناصر اليوم.....٩٨
علم الفلك والنجوم.....١٠٢
أنواع النجوم ١٠٦
الحياة خارج الأرض.....١١٠
الحياة ظاهرة كونية.....١١٣

نجوم لامعة ١١٧
عوالم في الكون ١٢٢
العالم الأصغر والعالم الأكبر ١٢٧
علوم العوالم الأخرى ١٣٣
سكّان الكواكب الأخرى ١٣٨
الكون يتمدّد ويتقلّص ١٤٣
دورات التمدّد والتقلّص ١٥٠
نهاية المجرّات ١٥٤
نهاية الثقوب السوداء ١٥٨
تكوّن النجوم والمجرّات ١٦٢
جوهر النفس ١٦٦
العقل عالم الجبروت ١٧٥
السموات السبع ١٨٠
العرفان ودوره في التربية ١٨٩
آليّة الوصول إلى الله ١٩٥
علم اليقين ٢٠٣
نور العرفان ٢٠٨

العرفان بالجميل

أنا مدين جدًّا في كتبي الأخيرة، وعلى الخصوص هذا الكتاب (أسرار النفس البشريّة)، وأيضًا كتبي السابقة (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) و (ورفعناه مكانًا عليًّا) و(بوذا ونور الملكوت) و(هكذا تكلّم الله على لسان داود) و (هكذا ناجى داود ربه) و (كتاب محاورتي مع الشيخ علي المياحي) و (كتاب المباني الأساسيّة للطريقة الأويسيّة) الذي أُسّس بناءً على أسئلته، ذلك للسيد محمد الشوباصي من سوريا، حيث زوّدني بالمراجع القيّمة وساعدني كثيرًا في إتمام كتبي ومراجعتها وتصميمها ونشرها إلكترونيًّا عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي والإنترنت. فالشكر له موصول لما آثرني به من خدمات قيّمة لا أنساها، وأسأل الله العليّ القدير أن يوفّقه في حياته في هذه الدنيا وفي الآخرة إنّه سميع مجيب الدعاء.

وأيضًا أشكر زهير من دبي في الإمارات العربيّة المتحدة وجهاد من البحرين لوضع موقع إلكتروني لكتبي، ولا أعرف حقيقة كيف أشكرهما على مأثرة الإيثار التي يتحلّان بها رغم مشاغلهما الكثيرة. فقد ساعداني كثيرًا في نشر كتبي وسهّلا للقارئ العربي الوصول إلى هذه الكتب. فالشكر موصول لهما إلى الأبد وأتمنّى لهما من كلّ قلبي التوفيق في الدنيا والآخرة.

المقدّمة

كتاب معاذلة النفس أو زجر النفس هو صحيفة من صحائف نبيّ الله إدريس عليه السلام، يشرح فيها لـ (نفسه) الحقائق كما هي، لأنّ النفس هي ألطف من سائر ما أحاطت به من الأشياء واحتوت عليه، وهي لا جسم البتّة، وهي كيان غير عقلائي، وأنّ سائر الأشياء مما دونها لا حياة له إلا بها، وأنّها ذات الفكر والإرادة والتمييز، بيد أنّها لا عقل لها، ولكنّها بكثرة الموعظة الذاتيّة تستقيم رويدًا رويدًا على طريق العقل والتعقّل، فإذا تمايلت إلى التعقّل واستوعبت الحقائق ولو بشقّ الأنفس، فإنّ الإنسان تصبح نفسه مستوية ناضجة ذات سكينة وطمأنينة، ونظام يقيم أودها ويقوّم عوجها.

يقول نبي الله إدريس عليه السلام: ثمّ التالي لجرم الفلك الذي هو أقصى الأجرام كلّها هو جوهر النفس المعطية الأفلاك [1] الحركة النظاميّة والأنوار الصافية الشريفة التي هي ألطف من [2] سائر ما أحاطت به من الأشياء واحتوت عليه. وذلك إنّ سائر ما تحتوي عليه أجسامٌ وهي لا جسم البتّة، وأنّ سائر الأشياء مما دونها لا حياة له إلا بها، وأنّها ذات الفكر والإرادة والتمييز [3] : فما واصلته أظهرت فيه ذاتها على حقيقة قبوله فصار حيًّا، وما لم تواصله لم يوجد له فكر ولا إرادة ولا حركة ولا تمييز. وما فقد شيئًا من [4] هذه الأشياء فهو ميّت لا محالة.

---

[1] فلك الأفلاك (في بعض النسخ).

[2] ألطف مما أحاطت (في بعض النسخ)، من سائر الأشياء (في بعض النسخ).

[3] وأنّها ذات الفكر والإرادة والتمييز والحركة (في بعض النسخ).

[4] وما فقد منه هذه الأشياء (في بعض النسخ).

وهذا النصح للنفس هو عمليّة طويلة ومشوار طويل في الحياة، وكلّما ثابر الإنسان وصمد في نصح النفس وزجرها ومعاذلتها، تميل النفس رويدًا رويدًا إلى الليونة، تمامًا كما يحوّل الطحين اليابس الناشف إلى عجين ليّن، ثمّ من بعد تعرّضه إلى النار، إلى خبز مفيد للبدن مقوّي للجسم يُستفاد منه في إدامة الحياة على الأرض.

كذلك النفس هي كالطحين يابسة ناشفة تلين تدريجيًّا بكثرة ذكر الله والخشوع والخضوع له سبحانه، والتوسّل والابتهال إليه جلّ وعلا في آناء الليل وأطراف النهار. ثمّ تلين النفس تدريجيًّا، ومن بعد ذلك بإمكانك أن تستفيد من هذه القوّة اللاعقلائية العظيمة لإعداد روح مؤهّلة لحياة الخلود في الدار الآخرة.

وهذا ما خُلقنا لأجله، فيجب أن لا تضيع هذه الصورة الخالدة عن مخيّلتنا، بل يجب أن تكون الآخرة دائمًا نصب أعيننا، وإن لم نفعل هذا ضيّعنا الكنز العظيم الذي أودعه الله فينا. فنكون كمن خُلق على هذه الأرض، وتحت وسادته كنز عظيم، وهو يعيش على هذه الأرض حياةً في غاية الفقر والبؤس. وإذا انتهت هذه الحياة الأرضيّة ندم على ضياع هذا الكنز، ولا ينفع حينها الندم ! ويتعرّض لعذاب أليم ولات حين مناص !

ولقد نزلت على نبيّ الله إدريس عليه السلام هذه الصحيفة في معاتبة النفس وزجرها عن الأمور السفليّة، وحضّها على طلب ما يلائمها ويشاكلها من الأمور العلويّة، وقصوها عمّا يؤذيها ويوبقها، وحثّها على ما فيه استقامتها وصلاحها.

وأوضح الله عزّ وجل على يدي هذا النبيّ العظيم الدلائل والبراهين على ما شرحه في هذه الصحيفة. ولم يقتصر نبيّ الله على سبر المعنى، بل أغرق في كشفه لكلّ أحدٍ بغير قصد تفسير ولا تنميق لفظ، بل بما يقوم في العقول والأفكار، ويقبله كلّ ذي لبّ صحيح. إذ كان ذلك مما يردع عن

الانحطاط في شغب هذه الدنيا الفانية، والتمسّك بحيال غرّتها، ويرشد إلى أعمال الخير، ويحضّ على الإكثار منه، وما يقرّب من خالقها ويزلف لديه، ويسكن نعيمه الذي لا زوال له ولا انقضاء لمدّته.

نزلت هذه الصحيفة قبل الطوفان في الماضي السحيق، ونريد أن نبسّط للقارئ هذه المعاني العظيمة من نبيّ عظيم، الذي عاش قبل طوفان نوح عليه السلام في عمق الأزمان السحيقة. وسوف نستعمل في لغة التبسيط هذه مصطلحات اليوم العصريّة، فربما كانت المصطلحات القديمة ثقيلة فهمها على العقل المعاصر، ونستعمل الكلام البسيط المفهوم لعامّة الناس حتى يبادر الخاصّة والعامّة بزجر أنفسهم ومعاذلتها.

ولقد بيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - الحقائق الكثيرة مما اكتُشِفَ حديثًا في العلم الحديث، من روعة المعاجز الإلهيّة التي تحدث في بدن الإنسان، وفي جنين الإنسان، وفي بيضة الدجاجة، وفي العالم المجهريّ، من موجودات صغيرة متناهية في الصغر، لا تكاد تبين حتى تحت المجاهر القويّة، وفي العالم الأثيري من أجسام أثيريّة هائلة الحجم، كالهالة أو السيّالة المغناطيسيّة للأرض والمشتري والشمس وغيرها من الأجرام السماويّة.

وعلى سبيل المثال، ولكي تتصوّري يا نفسُ ! مدى كبر حجمها، فإنّ الالكترونات الدائرة في فلك الميدان المغناطيسي داخل الكرة المغناطيسيّة للمشتري، يصل قطرها إلى ١٤٣ ألف كيلومتر، والذيل المغناطيسي لكوكب المشتري يصل طوله إلى ٣٠ مليون كيلومتر من الكوكب.

وبيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - كيف تطوّر موضوع العناصر الأربعة، في الحضارات القديمة، والتي استمرّت حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر، إلى عناصر كثيرة -

حوالي ١١٨ عنصر - خلال الـ ٣٥٠ سنة الماضية. فقد اكتشف روبرت بويل Robert Boyle في ١٦٦١ ميلادي أنّ هناك أكثر من مجرّد أربعة عناصر.

وبيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - التطوّرات الهائلة في علم الفلك، وعلى الأخصّ في العشرين سنة الأخيرة، حينما أرسلتْ ناسا الأقمار الاصطناعيّة، وخصوصًا قمر هابل Hubble، لاستكشاف الكون، وقمر جاندرا Chandra لاستكشاف الثقوب السوداء.

وبيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - كيف أنّ هناك عوالم كبرى وعوالم صغرى، وأنّ منظومتنا الشمسيّة ما هي إلا عالم أصغر. إنّ التقديرات العلميّة تشير إلى أنّ عمر شمسنا هو حوالي ١٥ مليار سنة، مضت منها حوالي ٥ مليارات سنة، وبقيت حوالي ١٠ مليارات من السنين. في حين أنّ التقديرات العلميّة تشير إلى أنّ عمر نجوم (الكازار Quasar)[1] وهي ألمع الأجسام الكونيّة وأكثرها تألّقًا - هو أكثر من ألف مليار سنة. وبالمقارنة بينهما يظهر جليًّا بأنّهما ينتميان إلى عوالم مختلفة.

وبيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - كيفيّة ولادة الكون، وأنّ كلّ ما يوجد الآن في الكون كان في يوم من الأيام جميعها مكبوسًا ومضغوطًا في حقل بقطر جزء من مليون جزء من المتر، أو أصغر بكثير مما تستطيع العيون رؤيته. وهذا ربما لاح لنا كشيء صغير جدًا متناهٍ في الصغر، ولكن يبدو لنا ذلك بسبب منظورنا البشري المحدود لا غير.

وأنّ الكون اليوم هو فارغ بشكل خارق العادة. تصوّر على سبيل المثال حجم الفضاء الخالي في منظومتنا الشمسيّة، وانظر كم هو فارغ رغم وجود تسعة كواكب فيها، في منطقة قطرها أقلّ من ١٤,٥ بليون كيلومتر. وأنّ هذا الفضاء الفارغ في منظومتنا يُعتبر مزدحمًا بالمقارنة مع مسافات

[1] يطلق على هذه النجوم (المجرات) اسم (الكازارز Quasars) الواحدة منها (كازارQuasar). وأحياناً تسمّى السوبر ليومينال - أي مصادر الضوء الفائق.

شاسعة واسعة فسيحة وخالية بين النجوم، والتي لا يوجد فيها غير بضع من الجزيئات، متسكّعة ومعلّقة هنا وهناك.

لذلك فهناك حيّز كثير لاكتناز ما يوجد في الكون. ولكن يا نفسُ ! كانت هناك مبادلة في مقابل الصورة المصغّرة، تمامًا كمبادلة السيّارة الغالية في تشغيلها ولكنّها واسعة وفسيحة، مقابل سيّارة رخيصة في تشغيلها لكنّها ضيّقة للجلوس فيها. وفي حالة الكون كانت المبادلة بالكون الفارغ في مقابل الحرارة الشديدة التي لا يتصوّر مداها وشدّتها.

كانت حرارة جبّارة شديدة البأس بدرجة حرارة خياليّة غير متصوّرة - أو بعبارة أخرى بدرجة حرارة رقم واحد وعلى يمينه ثلاث وثلاثون صفرًا - وعلى مرّ الزمن توسّع الكون، وبالتدريج تقلّصت الحرارة.

وبيّنتُ لـ (نفسي) – وهي تستحقّ ذلك – إمكانيّة أن تتحوّل الكرة الأرضيّة إلى حجم كرة القدم، لأنّ بين الإلكترونات والنواة في الذرّة فضاءًا وسيعًا فارغًا، ولو أنّ الفضاء الفارغ الخالي أُزيل من بين الإلكترونات والنواة في داخل الذرّات، بحيث تبقى الإلكترونات والنواة فقط لا غير، لأصبحت الكرة الأرضيّة بحجم كرة القدم - أو أصغر - بيد أنّ وزنها لا ينقص منه شيء، أي أنّ كرة القدم هذه تكون بوزن الأرض.

وبيّنتُ لـ (نفسي) – وهي تستحقّ ذلك - الشبه العجيب الغريب بين العالم الأصغر والعالم الأكبر، رغم الفرق الكبير في الأحجام، مما يثير الإعجاب والذهول من هذا الوجود العظيم.

فمن الأجسام الأثيريّة، الهالة أو السيّالة المغناطيسية للأرض والمشتري والشمس وغيرها من الأجرام السماويّة، وهي جميعها في الواقع على شكل قطرة ماء.

وعلى سبيل المثال، ولكي تتصوّري يا نفسُ ! مدى كبر حجمها، فإنّ الإلكترونات الدائرة في فلك الميدان المغناطيسي داخل الكرة المغناطيسيّة للمشتري، يصل قطرها إلى ١٤٣ ألف كيلومتر.

والآن تُجري أجهزة سفينة فضاء كاسيني Cassini قياساتها لحدود الذيل المغناطيسي لكوكب المشتري، والذي يصل طوله إلى ٣٠ مليون كيلومتر من الكوكب.

ويكفي أن تقارني يا نفسُ ! هذا الحجم الكبير جدًّا جدًّا جدًّا مع حجم الخليّة التي لا تُرى بالعين المجرّدة، رغم الشبه العجيب الغريب بينهما، وأنّ كليهما على شكل قطرة ماء !!!

وبيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - كيف أنّ هناك سكّانًا في الكواكب الأخرى وأنّ لهم علومًا، وكيف أنّ بالإمكان الارتباط بهم، حيث كتبتْ مجلّة تايمز Time Magazine الأمريكيّة سلسلة مقالات في عام ١٩٧٢ بصدد الارتباط بسكّان الكواكب الأخرى، حيث أشارتْ إلى التجارب التي كان علماء الإتحاد السوفييتي يجرونها، في ذلك الوقت، على الارتباط اللاسلكي بموجودات العوالم الأخرى، بواسطة تلسكوبات الراديو Radio Telescopes (التلسكوبات الصوتيّة).

كان علماء الإتحاد السوفييتي يا نفسُ ! لا يشكّون أبدًا بأنّهم يتلقّون رسائل من كواكب أخرى، خارج المنظومة الشمسيّة، بواسطة تلسكوبات الراديو Radio Telescopes، وكانوا يردّون عليها. إلا أنّه كانت هناك مشكلة كبيرة وهي مشكلة الزمان.

فأقرب كوكب يُرسل رسائله إلى الأرض، هو على بعد مائة سنة ضوئيّة من الأرض. فإذا أجاب العلماء على تلك الرسائل، فإنّه يحتاج إلى مائة سنة، حتى تصل هذه الرسائل إلى ذلك الكوكب. ويجب الانتظار مائة سنة أخرى، حتى يصل الردّ من أقرب كوكب من الأرض. علمًا بأنّ بعض الرسائل تصل من عوالم قصيّة جدًّا، بحيث أنّه ربما أُرْسِلَتْ الرسائل إلى الأرض، قبل ملايين السنين، وقبل عهد الدينوصورات، ناهيك عن عصر الإنسان.

وكتبتْ مجلّة تايمز Time Magazine الأمريكيّة: إنّ أوّل مرّة حصلت فيها تجربة تلقّي الرسائل من الموجودات العالمة الذكيّة من الكواكب الأخرى، كان في زمن ماركوني Marconi، حيث تلقّى الأخير رسائل لاسلكيّة عام ١٩٢٠ وقال: إنّه لا يشكّ أنّ هذه الرسائل قد أرسلتها موجودات عالمة ذكيّة من الكواكب الأخرى.

وقد كتبت ابنة الأدميرال (كنت ميلو) إلى مجلّة تايمز Time Magazine الأمريكيّة قائلة: إنّها تشهد بأنّ ماركوني Marconi أخبر أباها بأنّه يتلقّى الرسائل من الكواكب الأخرى في محطّة اللاسلكي، في السفينة التي كان يجري فيها اختباراته، والتي كانت تسمّى (سفينة التكرا). ونشر هذا الخبر في مجلّة تايمز Time Magazine الأمريكيّة في تاريخ ٢١ مايو ١٩٧٣.

وبيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - بروز نظريّات مهمّة في القرن العشرين، منها نظريّة النسبيّة الخاصّة ثم العامّة ثم توسّع الكون ثم المادة الداكنة ثم تسارع توسّع الكون ثم الطاقة الداكنة كالتالي:-

وفي أوائل القرن العشرين دخل العلم إلى عالم القفزات، بعدما أعلن آينشتين Einstein نظريّاته النسبيّة الخاصّة والعامّة، وأعلن إدوين هابل Edwin Hubble نظريّة توسّع الكون. ومنذ ذلك الحين، اهتمّ العلماء والفلكيون بعلم المجرّات والثقوب السوداء، التي وضعها آينشتين Einstein نظريًّا على طاولة البحث والنقاش والتحقيق العلميّ.

ومنذ السبعينات من القرن العشرين، بدأ العلم يقفز قفزات عالية، وذلك بفضل التعاون الدولي، وتضافر الجهود على إنجازات خارقة العادة في مجال الطيران في الفضاء، وأجهزة الرؤية الدقيقة المتقدّمة، وآلات التصوير المتطوّرة، التي تعدّت الأشعّة التي تقع تحت الرؤية البصريّة إلى الأشعّة السينيّة X ray وأشعّة جاما Gamma-ray التي لا تراها العين.

وفي عام ١٩٩٧ ميلادي تمّ اكتشاف عجيب وغريب وهو تسارع توسّع الكون، بمعنى أنّ الكون لا يتوسّع توسّعًا عاديًّا فحسب، بل أنّ سرعة توسّعه تزداد لحظة بعد لحظة. وفي هذا المجال كتبتُ في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) في صفحات ٢٢٩ الى ٢٣١ ما يلي:-

إنّ الفلكيين قد أعلنوا بأنّ اكتشاف (نجم متفجّر قصيّ) قد أكّد أنّ الكون يتوسّع بتسارع - أي أنّ سرعته تتزايد في كلّ لحظة - وذلك بسبب وجود (الطاقة الداكنة) الغامضة التي تشيع في كلّ مكان من الكون. إنّ هذا النجم - وهو أبعد نجم استطاع البشر اكتشافه على بعد ١١ مليار

سنة ضوئيّة عن الأرض - قد كشف حقيقة أنّ الكون في فجر تاريخه كان يتوسّع، ولكن في خطى متباطئة وئيدة - أي بتسارع سلبيّ - وقد بدأ توسّع الكون يتحوّل من التباطؤ إلى التسارع في الفترة الأخيرة، أي قبل حوالي ٦ مليار سنة، وذلك بسبب قوّة صادّة غير معروفة، والتي شرعت في كسب معركتها على الجاذبيّة.

وبيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - كيفيّة بروز الحياة في الكون، وأنّ النجوم التي تموت هي أحسن المصانع في الكون لإنتاج الكيمياء العضويّة ومن ثم الحياة كالتالي:-

إنّ ظهور المركّبات العضويّة المعقّدة أو اللبنات الأساسيّة للحياة - الرائدة للكيماويّات الحيّة - في السحب الكونيّة الكثيفة كان استنتاجًا من التجربة التي أُجْرِيَتْ في المختبرات.

ولكن هل وجد علماء الفلك مركّبات الكربون في الكون، علمًا بأنّ الحياة تعتمد على قدرة ذرّات الكربون لتشكيل الحلقات.

نعم فلقد ذكرتْ نشرة (الطيران في الفضاء الآن Space Flight Now) المؤرخة ٣١ يناير ٢٠٠١ تحت عنوان (الجزيء ذو الحلقات اِكْتُشِفَ لأوّل مرّة حول النجوم) ما فحواه :-

لقد اكتشف العلماء مادة أسيتيلين Acetylene - غاز يستخدم في التلحيم وهو من مركّبات الكربون البسيطة - حول نجوم هرمة، وصلت في هرمها إلى مرحلة تسمّى (العملاق الأحمر)، وهي تساوي حوالي ثلاثة أضعاف الشمس، وتقذف بكميات هائلة من الغبار والغازات في بيئتها. والكربون يتولّد نتيجة للانفجارات النووية داخل نواة النجوم. ثم تحوّلوا إلى نجم أو سديم أقدم من ذلك، والذي يكاد أن يموت، وقد وصل إلى مرحلة تسمّى (القزم الأبيض)، لأنّه محاط بسحب جميلة مليئة بالغاز والغبار المتوهّج.

وكان الاعتقاد السائد بأنّ الغبار المقذوف في مرحلة (العملاق الأحمر) يتعرّض بعد ذلك لغسيل الأشعّة فوق البنفسجيّة القويّة، وللرياح السريعة الآتية من النجم. وهذه الأشعّة والرياح السريعة تكسر مركّبات الكربون، وتبدأ سلسلة من التفاعلات الكيماويّة الجديدة.

وكانوا يتوقّعون اكتشاف البنزين في مرحلة (القزم الأبيض). وفعلًا اكتشفوا البنزين C6H6، وهو مركّب من ستّ ذرّات من الكربون (مرتّبة على شكل حلقة) وستّ ذرّات من الهيدروجين. وهذا هو نفس التركيب الذي اكتشفه الكيميائي الألماني كيكولي Kekulé في عام ١٨٦٥.

وفي الصناعة يُستخرج البنزين أو البينزول Benzene من البترول، وهو ذو فوائد كثيرة. ومن المعروف أنّه يُستخرج من البنزين هيدروكربونات تسمّى أروماتيك aromatic hydrocarbon وهي معروفة برائحتها الخاصّة، فلذلك فهي من المكوّنات الأساسيّة لأنواع العطر والشموع. والطريف أنّ هذا النوع من الهيدروكربونات متوفّرة بكثرة في الكون، وهي تتشكّل من الخيوط الطويلة أو المئات من ذرّات الكربون.

نعم لقد اكتشفوها حول النجوم أو السدم الميّتة. إنّ التحوّل من مرحلة (العملاق الأحمر) إلى مرحلة (القزم الأبيض) يستمرّ عدّة قرون، في حين أنّ التحوّل من (القزم الأبيض) إلى (النجم الميّت) يستمرّ عدّة آلاف من السنين، وهي لعمري يا نفسُ ! مدّة جدّ قصيرة في مقياس التحوّلات الفلكيّة. وغنيٌّ عن الذكر أنّ النجوم التي تموت هي أحسن المصانع في الكون لإنتاج الكيمياء العضويّة (حيث يلتقي علم الكيمياء مع علم الحياة).

وبيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - كيف تتكوّن النجوم الجديدة والمجرّات الجديدة في سياق عمليّة كونيّة خلّاقة كالتالي :-

ولأنّ النور يُبتلع، فلا يكون هناك انعكاس عن النور، فلهذا سمّيت الثقوب سوداء. ولكن حينما تقتات الثقوب السوداء، تخلق نوافير وفوّارات وشآبيب فعّالة غزيرة من الغازات، وهي تتسابق بسرعة الضوء تقريبًا إلى الفضاء الخارجي.

وهذه النوافير والفوّارات والشآبيب تتكهرب وتحدث فيها رجّات كهربائيّة قويّة مشتعلة، والتي تطلق عمليّة كونيّة خلّاقة، تخلق من خلالها النجوم الجديدة. إنّ بروجل Broglie و ستيف كروفت Steve Kroft قد درسا إحدى هذه الفوّارات، وهي تتخلّل منطقة محيّرة، تنشط فيها بشدّة عمليّة تكوّن النجوم. ويقولان إنّ هذه النوافير والفوّارات والشآبيب تتقطّع بشكل شرائح وتتخلّل المنطقة، متسبّبة في سقوط الغازات المكتظّة وتدهورها، ما يكون سببًا ومبشّرًا بولادة نجوم جديدة.

إنّ هذا الاكتشاف يدعم الأدلّة المتنامية على أنّ الثقوب السوداء تلعب دورًا كاملًا ومكمّلًا في تكوّن المجرّات.

إنّ الأسطورة قد تحوّلت إلى وقائع ! يقول فان بروجل Broglie: قبل عشرين عامًا (أي في عام ١٩٨٥) كان هذا النوع من التفكير يُعتبر أسطورة علميّة، ولكنّه اليوم يعيد العدالة إلى الثقوب السوداء، لأنّنا كنّا نفكّر عنها – بشكل سلبيّ - بأنّها تبتلع كلّ شيء، بيد أنّها تنبعث منها النوافير والفوّارات والشآبيب من الغازات، والتي تخلق حياة جديدة، بتسبّبها في رزوح الغيوم وسقوطها تحت وطأتها، ثم انهيارها وتدهورها، ومن ثم ولادة نجوم جديدة.

إنّ الثقب الأسود Black Hole موضوع البحث يقوم بعمل مولّد كهربيّ ضخم يدفع بنقاط من المادة المحمّصة إلى التسارع، ويدلعها في سرعة فائقة إلى قدّام محور دورانه.

إنّ هذه النوافير والفوّارات والشآبيب يا نفسُ ! غير مرئيّة، بيد أنّ الفلكيين يكتشفونها بتلسكوبات صوتيّة (تلسكوبات الراديو Radio Telescopes). يقول ستيف كروفت Steve Kroft: إنّ النوافير والفوّارات والشآبيب - التي يُسمع صوتها فقط ولا ترى - تحرث في غيوم الغاز القريبة منها

حرثًا، وإنّ سرعتها التي تفوق سرعة الصوت أضعافًا مضاعفة تُحدث أمواج الصدمة، والتي تكبس الغاز وتحمّصه وتسخّنه. وإنّ الغازات في الغيوم تتكهرب، بمعنى أنّ الذّرّات تفقد إلكتروناتها.

وبعد اجتياز الصدمة والرجّة والهزّة فإنّ (الأيونات) - أي الذّرّات بعد فقدانها الإلكترونات - تتركّب من جديد محدثة الإشعاعات، والتي تنقل الطاقة خارج الغيوم. حينذاك تبرد الغيوم وتتقلّص أكثر وأكثر. وحينما تصل عقدة من الغاز كثافة معيّنة، يتدهور الغاز وينهار، بمعنى أنّ غيوم الغاز ترزح تحت وطأة الغازات الكثيفة المكتظّة، ثم تنهار وتتدهور، ونتيجة لذلك تتشكّل النجوم.

يقول كروفت Kroft: إنّ الدراسات الأخرى تُظهر بأنّ الثقوب السوداء تلعب دورًا هامًا في تكون المجرّات. إنّ تكوّن ثقوب سوداء ضخمة عامل مهمّ لتشكّل مجرّات جديدة.

إنّ معظم المجرّات الكبيرة لها ثقب أسود في مركزها، والذي طالما تصدر عنه نوافير وفوّارات وشآبيب من مواد في غاية السرعة.

وبيّنتُ لـ (نفسي) - وهي تستحقّ ذلك - عن خلق اللوح المحفوظ، قبل خلق السموات والأرض، وكانت السموات والأرض حينها دخانًا كالتالي:-

إنّ الله تعالى خلق اللوح المحفوظ في الأربعة الأيام الأولى، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام، وكانت السموات والأرض حينها دخانًا، وبعد مضيّ أربعة أيام، قال الله تعالى {لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [1].

وكلّ هذه العمليّة حدثت في اليومين الأخيرين. لكنّ اللوح المحفوظ التي بارك الله تعالى فيها وقدّر فيها أقواتها حدثت في الأربعة الأيام الأولى.

[1] سورة فصلت ١١ - ١٢.

إنّ الله تعالى يذكر بكلّ وضوح بأنّ كلّ هذه الأحداث ـ حتى سقوط الورقة والحبّة في ظلمات الأرض ـ كلّها مسجّلة ومدوّنة مسبقًا في اللوح المحفوظ أو الكتاب المبين، وأنّ كلّ الأحداث صغيرها وكبيرها منقوشة في اللوح المحفوظ، حتى قبل خلق السموات والأرض.

ويذكر القرآن الكريم أيضًا بأنّ الله تعالى أجاب دعواتنا ـ التي ندعوها اليوم ـ قبل خلق السموات والأرض، حين خلق اللوح المحفوظ، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها، في الأيام الأربعة الأولى من تشكّل الكون، حينما كانت السماء والأرض دخانًا، بشكل أوامر مكتوبة إلى الملائكة. وبعد ذلك أمر الله تعالى بخلق السموات والأرض. ودامت عمليّة تكوّن السموات والأرض يومين. وأنّ الله يمحو ما يشاء ويُثْبِتُ وعنده أمّ الكتاب. وما الملائكة إلا عباد مكرّمون يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه.

وأبيّنُ لكِ يا نفسُ ! كلّ هذا كي تستقيمي على خطِّ التعقّلِ والمعرفةِ، وتستنيري بأحدثِ الاكتشافات في حقل المعرفة.

المؤلف

سيّد تقي سيّد حسين الموسوي

٢٠١٥/١٢/٢٩

١٧ ربيع الأول عام ١٤٣٧ هجري

يوم مولد الرسول الأعظم الشريف

مُحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم

المشاهدات الحسّية والعقليّة

يقول نبيّ الله إدريس عليه السلام في الفصل الأول:

يا نفسُ ! تمثّلي وتصوّري ما أنا موردهُ لكِ من المعاني العقليّة الموجودة وجودًا دائمًا. فما تصوّرته فقد عَقَلْتِه واقتنيتِه وتيقّنتِه كتيقّنكِ أنّ الحيّ جنسٌ لنوع الإنسان، وأنّ المتنفّس جنسٌ لنوع الحيّ، وأنّ الجسم جنس لنوع المتنفّس، وأنّ الجوهر الأقصى جنسٌ لنوع الجسم؛ وكتيقّنكِ أيضًا أنّ المستوي غير المعوجّ، وأنّ الكلّ أعظم من الجزء، وأنّ الماء يروي من العطش، وأنّه بارد رطب بالطبع. وأنّ النار تحرق وتنضج، وأنّها حارّة يابسة بالطبع ـ وكسائر ما قد عقلتِه وشاهدتِه وشافهتِه في عالم العقل وعالم الحسّ، وما خفي عنكِ يا نفسُ مما أنا مبيّنهُ لكِ، فاستعملي فيه التمثّل العقليّ المُتْقَن الصحيح البريئ من الاختلاط والاختلاف، فإنّه سيدلُّك ظاهرُ ما شاهدتِه على باطن ما خفي عنكِ، كما استدلّ الناظر إلى الصورة الممثّلة في الحائط على وجود المصوّر لتلك الصورة الممثّلة، وكما استدلّ بما عاين من حركات يده على سرائر تخطيطها وتشكيلها على لطائف ما كان قائمًا في فكره ونفسه من جملة ذلك، يا نفسُ ! فإنّه قد يُستعمل التمثيل على سائر الأشياء بالآثار الموجودة عند غيبة المؤثّرين لها، وأيضًا قد يُستعمل التمثيل له في الاعتبار والتعجّب ممّا قد ورد وممّا هو وارد لا محالة بضروب الأمثال على غائب الأشياء وشاهدها. فاستعملي، يا نفسُ ! التصوّر والتمثُّل في سائر الأشياء الموجودة عقلًا وحسًّا.

ونريد أن نبسّط للقارئ هذه المعاني العظيمة من نبيّ عظيم الذي عاش قبل طوفان نوح عليه السلام في عمق الأزمان السحيقة. وسوف نستعمل في لغة التبسيط هذه مصطلحات اليوم العصريّة، فربما كانت المصطلحات القديمة ثقيلة فهمها على العقل المعاصر، ونستعمل الكلام البسيط المفهوم لعامّة الناس حتى يبادر الخاصّة والعامّة بزجر أنفسهم ومعاذلتها.

يقول الطغرائي:

والــنفسُ كالطفــلِ إن تهمــلهُ شَــبَّ عــلى حُـــبِّ الرَّضـــاعِ وإنْ تَفْطِمْـــهُ يَـــنْفَطِم

فكم هو سخيف أن يكون الطفل وهو في الرابعة من عمره مثلًا مفتونًا بالرضاع من ثديي أمّه! كذلك الناس الذين لم ينفطموا عن أهواء النفس وشهواتها ورغباتها سخيفون جدًا في هذه الحياة ويتصرّفون بحماقة بالغة.

أو الأطفال الذين يتعرّضون من نعومة أظفارهم إلى غسيل مخّ مشدّد متطرّف، يعلّمونهم أفكارًا متطرّفة هدّامة لا تنتمي إلى شيء من العقلانيّة، سوف يشبّون على الأعمال الهدّامة من قتل وذبح وتدمير المدن والآثار الحضاريّة الإنسانيّة، وهدم كلّ القيم والمثل العليا، وكلّ ما هو إنسانيّ من دون رحمة ولا شفقة !

يذكر نبيّ الله إدريس عليه السلام التصوّر والتمثّل، فما هو مغزاهما يا ترى ! التصوّر هنا هو إيجاد الصورة في المخيّلة مما هو موجود في عالم الحسّيّات، مثل إيجاد صورة الكرسيّ أو القلم أو الورقة في المخيّلة. أو كلمات نسمعها أو نقرأها تبقى في مخيّلتنا، وتساهم في تغيير أوضاعنا الماديّة والروحيّة، أو أصوات الغناء والموسيقى المحبّبة إلينا تبقى في أذهاننا وتطربنا. أو طعام نلتذّ به أو شراب سائغ

للشاربين تبقى لذّتها في مخيّلتنا وأذهاننا. أو روائح العطر والورود والرياحين تبقى في أذهاننا وتطربنا وتسعدنا بشذاها، وهكذا دواليك !

أما التمثّل العقليّ الذي ذكره نبيّ الله إدريس عليه السلام فهو كالتصوّر، لكنه إيجاد الصورة في المخيّلة والذهن، مما ثبت لنا عقليًّا، كالأمثلة التي أوردناها في مقدمّة الكتاب من الاكتشافات العلميّة الهائلة الحديثة، أو العلوم والحكم والأمثال التي ورثناها من الماضي، والتي نسمعها أو نقرؤها. ولا يخفى علينا حجم ما يساهم هذا التمثّل العقلي من تغييرات في أوضاعنا الماديّة والروحيّة!

فكما ترى فإنّ نبيّ الله إدريس عليه السلام ينطلق من البديهيّات، الحاضرة لدينا في حياتنا اليوميّة، التي لا يمكن للنفس البشريّة التي يخاطبها أن تنكرها أو تجحدها. فهذه البديهيّات ظاهرة للحسّ والعقل ظهور الشمس في وضح النهار. فنحن نشاهدها ونمارسها كلّ يوم في حياتنا، ألا هي مشاهداتنا الحسّيّة والعقليّة.

فيا نفسُ ! ألستِ متيقّنة بأنّ المستوي غير المعوجّ، وأن الكلّ أعظم من الجزء، وأنّ الماء يروي من العطش، وأنّه بارد رطب بالطبع، وأنّ الشراب السائغ للشاربين هو بفضل هذا الماء، الذي يعطينا الحياة والنشاط والإنتعاش واللذّة، وأنّ النار تحرق وتنضج، وأنّها حارّة يابسة بالطبع، وأنّ جُلَّ ما نأكله من لذائذ الطعام إنّما هي بفضل طبخها على النار ؟

كذلك يا نفسُ ! ألستِ متيقّنة بأنّ الإنسان الحيّ يتنفّس، ولولا الجسم لما تنفّس الإنسان الحيّ ؟ ألستِ متيقنة يا نفسُ ! بأنّنا نحيا على هذه الأرض بفضل هذا التنفّس ؟ ألستِ متيقّنة يا نفسُ بأنّنا نلد أطفالًا صغارًا بفضل قوّة الجنس ؟ ولولا هذه القوّة لما ولد على ظهر الأرض إنسان !

كذلك التمثّل العقليّ يدلّكِ على أن للجسم، ونظامه البديع المعجز، جوهر أقصى، بمعنى خالق بارئ مقتدر لا يمكن لأيّ أحدٍ أن يباريه في معجزة مخلوقاته وصنائعه. وإذا اجتمعت الإنس والجنّ وكلّ علماء العالم، بما فيهم علماء الغرب وعلماء ناسا، وأرادوا أن يخلقوا ذبابة أو بعوضة لما استطاعوا ذلك !

وهذه الأمثلة من الإبداعات المعجزة في بدننا، أو في جنين الإنسان، أو حتى في بيضة الدجاجة، أو الموجودات المجهريّة والأثيريّة، التي سوف أذكرها في فصول لاحقة، من يا ترى يستطيع أن يُحدثها غير الله سبحانه وتعالى تقدّست أسماؤه !

كذلك التمثّل العقليّ يدلّكِ على أنّ لكل صورة مصوّر ولكلّ مصنوعٍ صانع ولكلّ مخلوقٍ خالق. يا نفسُ ! أما ترين بأعينكِ ليل نهار خلق الجنين في بطن أمّه، كيف يحدث ذلك ! لا تدرين ! أليست هذه معجزة ؟

ثمّ إنّ صورتكِ السويّة مَنْ خلقها يا نفسُ ! في عالم الرحم ؟ هل أنتِ خلقتيها ؟ هل أنتِ خلقتِ طبائعكِ التي ولدت عليها ؟ أم هل شاهدتِ خلقكِ يا أيّتها الجاهلة ! الله خلقكِ ولم يشهدكِ خلقكِ ! فماذا تقولين ؟ وهل اخترتِ المجيء إلى هذه الدنيا ؟ إذن مَنْ اختارَ لكِ وجودكِ على هذه الأرض ؟ ثم مَنْ سوف يختار رواحكِ من هذه الدنيا ؟ ومتى يكون ذلك يا نفسُ !

ترين بأعينكِ يا نفسُ ! أنّ الجنين في بطنِ الكلبةِ يخرج كلبًا، وفي رحمِ الإنسان الأنثى يخرجُ إنسانًا سويًّا، وفي رحمِ أنثى الحمار يخرجُ حمارًا، وفي رحمِ البعوضة تخرجُ بعوضة، وفي رحمِ الذباب تخرج ذبابة، وهلمّ جرًّا في كلّ مخلوقات العالم ! أليست هذه معجزة ؟

ترين بأعينكِ يا نفسُ ! أنّ الدجاجة تبيض، وفي هذه البيضة تتمّ عمليّة معجزة يتحيّر العلماء منها، إذ يخرج من هذه البيضة دجاجة أو ديك سويّ يؤذّنُ لكِ في بطون الليل. أليست هذه معجزة ؟

أما ترين بأعينكِ يا نفسُ ! أنّ البقرة تلد لكِ بقرة أو ثورًا، ثمّ إنّكِ تأكلين من لحمها لحمًا طريًّا، اللحم الذي يمدّكِ بأسباب الحياة. وأنّ الدجاجة تلدُ لكِ دجاجة أو ديكًا، ثمّ إنّكِ تأكلين من لحمها لحمًا طريًّا، اللحم الذي يمدّكِ بأسباب الحياة. وهناك عشرات بل مئات بل آلاف بل آلاف الآلاف الآلاف من الأمثلة ترينها يا نفسُ ! أمام أعينكِ، في كلّ يوم بل في كلّ ساعة بل في كلّ لحظة ! أليست هذه معجزة ؟

بل إنّكِ ترين بأعينكِ يا نفسُ ! كيف تتجمّع السحب فوقكِ، وكيف ترعد السماء وتبرق، وكيف تنهمر الأمطار من فوقكِ، وكيف أنّ الأرض من تحتكِ تهتزّ وتربت وتنبت من كلّ زوج بهيج ! أليس لكلّ هذه المظاهر المعجزة خالق وبارئ ومصوّر ؟

وجوده في كلّ ظاهرة يا نفسُ ! وجود الأصل في التجلّيات، التي تولد ثمّ تتغيّر ثمّ تأفل، بيد أنّ الأصل ثابت لا يتغيّر. وكمثال وللتقريب إلى الأذهان، فإنّ وجود الأصل لكلّ ظاهرة كوجود الماء في ظاهرة موج البحار. كلّما فتّشتِ عن الموج رأيتِه قد أكمل دورته ثم غاب عنكِ، لكن كان هناك الماء لا الموج يا نفسُ ! وإنّما أخذ الماء أشكالًا فصرتِ ترينَ الأشكال !

كلّ هذه الأشياء تشاهدينها يا نفسُ ! في عالم الحسّ، ويثبت عندكِ وجود الجوهر والمصوّر والصانع والخالق في عالم العقل.

وما خفيَ عنكِ يا نفسُ ! فاستعملي التمثّل العقليّ، كما عَلَّمْتُكِ آنفًا. فظاهر ما تشاهدينه يا نفسُ ! سيدلّكِ على باطن ما خفي عنكِ، كما تستدلّين من الصورة إلى المصوّر ومن أعمالكِ إلى

لطائف أفكارِكِ. فالعقل والفكر من اللطائف التي تشاهدينها عقليًّا وفكريًّا، على الرغم من أنّك لا تشاهدينها حسّيًّا.

فاستعملي التصوّر يا نفسُ ! وأوجدي الصورة في المخيّلة ممّا هو موجود في عالم الحسّ. وأيضًا استعملي التمثّل العقليّ وأوجدي الصورة في المخيّلة وفي الذهن ممّا يثبت لكِ في عالم العقل والفكر.

فالآثار الموجودة تدلّ على المؤثّر وإن كان المؤثّر غائبًا حسّيًّا. وكما يُقال الشاهد يدلّ على الغائب. فالمعاني العقليّة موجودة لا شكّ ولا ريب فيها، ولا يمكن إنكارها. ولكنّ عمليّة التمثّل العقليّ يجب أن يكون متقنًا صحيحًا بريئًا براءة الفطرة، كاستدلال أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام على وجود الخالق، الذي ذُكِرتْ تفاصيلها في القرآن الكريم.

يقول الله تعالى في سورة الأنعام الآيات ٧٥-٨٣: { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }.

طبعًا قولنا: (عمليّة التمثّل العقليّ يجب أن يكون متقنًا صحيحًا بريئًا براءة الفطرة) كلّ كلماتها، كلمة كلمة، تحمل معها عالمًا من المشاكل، تحول دون التمثّل العقليّ أولًا، ودون أن يكون متقنًا ثانيًا، ودون أن يكون صحيحًا ثالثًا، ودون أن يكون بريئًا رابعًا، ودون أن تتجلّى الفطرة والطهارة والنزاهة فيها خامسًا.

وهذه المشاكل جلّها هي بسبب ما نسمّيها في علم النفس بالعقد النفسيّة التي غاصت في أعماق العقل الباطن. طبعًا مع هذا الفارق بأنّ علم النفس في الغرب يُعنى برفع هذه العقد كي يحصل المرء على السعادة في أحضان التجانس والتناغم مع الحضارة الغربيّة بكلّ مساوئها، وهي بالطبع سعادة ناقصة، في حين أنّ الأنبياء والأولياء يعنون بالعقد النفسيّة التي تحول دون التزكية والبرائة والطهارة والنزاهة، حتى ينال المرء برفعها السعادة الحقيقيّة الدائمة والنفس المطمئنّة الخالدة.

في الحضارة الغربيّة يجدون السعادة في التجانس والتناغم مع الحضارة الغربيّة، ومن كان له هذا فهو طبيعي. أمّا عند الأنبياء والأئمّة والأولياء فإنّهم يجدون السعادة والسكينة والنفس المطمئنّة الخالدة في التجانس والتناغم مع الله عز وجل، ينبوع الوجود، ومنبع الحياة والحكمة والكرم والجود المطلق.

أمّا كيف نتحرّر من الرواسب البغيضة في العقل الباطن من الناحيتين الدنيويّة والأخرويّة، فسوف نبحثها لاحقًا في هذا الجزء أو في الأجزاء التالية من هذا الكتاب.

معجزة بدن الإنسان

ومن أمثلة النظام البديع المعجز في بدننا هو الدورة الدمويّة التي ذكرتها في كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) كالتالي:-

الدورة الدمويّة في تعليمات الإمام عليه السلام

لقد تنبأ الإمام جعفر الصادق عليه السلام بالدورة الدمويّة في الإنسان قبل وليام هارفي William Harvey - الذي يسمّونه بمكتشف الدورة الدمويّة في جسم الإنسان – بـ ٩٠٠ سنة. فكيف كان الإمام عليه السلام يعرف ذلك ؟ لا بدّ أنّه كان يرى الدورة الدمويّة عيانًا، لأنّه خازن علم الله، وينهل من العلم، لا من مصادر بشريّة، بل من المنبع الإلهي.

ألا تسمعه كيف يتكلّم إلى (أبو شاكر) بكلّ ثقة واطمئنان قائلًا له:-

هل تسمع صوت حركة الدم في بدنك ؟

وهل تشمّ رائحة دمك وهو يجري في بدنك ؟

يا أبا شاكر إنّ الدم يدور في بدنك دورة كاملة في عدّة دقائق.

ولو توقّف الدم عن حركته لعدة دقائق لسوف تموت.

وهل شاهدت حركة دمك في بدنك ؟

ولتسليط الضوء على ما قاله الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن الدورة الدمويّة، وأنّ الدم يدور في بدنك دورة كاملة في عدّة دقائق. ولو توقّف الدم عن حركته لعدّة دقائق لسوف تموت.

فإنّنا نقول إنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام قد سبق العالم بقرون بهذه النظريّة. ولذلك وجب علينا أن نعطي توضيحات عن الدورة الدمويّة، التي لم تكن معروفة في زمن الإمام عليه السلام.

لقد تم اكتشاف الدورة الدمويّة الصغرى من قبل العالم ابن النفيس سنة ١٢٤٢، ولا يزال ابن النفيس الذي اكتشفها مجهولًا في كتب الطب حتى الآن. ولا يُعلم على وجه الدقّة ما إذا كان هذا الاكتشاف معروفًا بعد عصره أم لا. ولقد وُجِدَت له عدّة مخطوطات يشرح فيها نظام الدورة الدمويّة.

وفي أوربا بدأت سلسلة من الأبحاث، نشر أوّلها مايكل سيرفتس Michael Servetus سنة ١٥٥٣. وبما أنّه كانت دراسة جسم الإنسان ممنوعة من قبل اللاهوتيين في زمنه، فإنّ اكتشاف الدورة الدمويّة الصغرى ظلّ غير معروف إلى أن جاء وليام هارفي William Harvey في سنة ١٦١٦.

الدورة الدمويّة الصغرى هي جزء من الجهاز الدوري، الذي يشمل جهاز القلب والأوعية الدمويّة. والدورة الدمويّة الصغرى تتكوّن من الأوعية الدمويّة التي:

- تحمل الدم الغير المؤكسد بعيدًا عن القلب إلى الرئتين، وتعيد الدم المؤكسد إلى القلب ثانيةً.
- يغادر الدم الغير المؤكسد الجزء الأيمن من القلب، عن طريق الشرايين الرئويّة التي تذهب بالدم إلى الرئتين، وهناك تقوم كريّات الدم الحمراء بتحرير غاز ثاني أوكسيد الكربون، وتتّحد بالأوكسجين، خلال عمليّة التنفّس.
- يغادر الدم المؤكسد الرئتين، عن طريق الأوردة الرئويّة، والتي تصبّ في الجزء الأيسر من القلب، وبذلك تكتمل الدورة الدموية الصغرى (الرئويّة).
- بعدها يتمّ توزيع الدم إلى أنحاء الجسم كافّة، عن طريق الدورة الدمويّة الكبرى، قبل أن يرجع ثانية إلى الدورة الدمويّة الصغرى.

ومن عجائب قدرة الله في خلقه أنّ الدورة الدمويّة الصغرى تكون غير مكتملة في الجنين، لأنّ رئتي الجنين تكونا منطبقتين، ويمرّ الدم مباشرة من الأذين الأيمن إلى الأذين الأيسر. وعند توسيع الرئتين عند الولادة، يتوجّه الضغط الرئوي وقطرات الدم من الأذين الأيمن إلى البطين الأيمن وعبر الدائرة الرئويّة. وعلى مدى عدّة أشهر ، تغلق الثقبة البيضويّة، وتترك البقعة المعروفة باسم الحفرة البيضويّة في القلب لدى الكبار.

الدورة الدمويّة الكبرى هي جزء من جهاز القلب الدمويّة، والتي تحمل الدم المؤكسد بعيدًا عن القلب إلى بقيّة أنحاء الجسم، وتعيد الدم الغير المؤكسد إلى القلب ثانية. وهذا هو بعكس ما يحصل في الدورة الدمويّة الصغرى أو المغلقة.

يغادر الدم - القادم من الرئة - القلب عن طريق الشريان الأبهر (الأورطي)، ومن هناك ينتشر الدم المؤكسد إلى جميع أعضاء الجسم وأنسجته، التي تمتصّ الأوكسجين عبر الشرايين والشريينات والأوعية الدمويّة الشعريّة.

يتمّ امتصاص الدم الغير المؤكسد عن طريق الأوردة الصغيرة ثمّ الأوردة الأكبر ثمّ يتمّ نقلها إلى الوريدين الأجوفين الأعلى والأسفل، والتي تصبّ في الجزء الأيمن من القلب، وبذلك تكتمل الدورة. بعدها يتمّ إعادة أكسدة الدم عن طريق ذهابه إلى الرئتين عن طريق الشريان الرئوي، والتي تسمّى الدورة الدمويّة الصغرى، وبعدها ترجع إلى الدورة الدمويّة الكبرى.

أي أنّ الدم الغير المؤكسد يخرج من القلب ويدخل إلى الرئتين، ويأخذ الأوكسجين ويعود إلى القلب، فيخرج الدم المؤكسد من القلب إلى أنحاء الجسم.

أي أنّ الدم المؤكسد يصل للأذين الأيسر من الرئتين عبر الأوردة الرئويّة، ثمّ ينتقل إلى البطين الأيسر عبر صمام ثنائي الشرف، ويُضخّ بعدها إلى باقي أعضاء الجسم عبر الشريان الأبهر (الأورطي).

يسيطر الدماغ والمراكز العصبيّة في جسم الإنسان على الدورة الدمويّة، حيث يتمّ ضخ الدم الأحمر المليء بالأوكسجين من القلب، عبر الشرايين، إلى كافّة أجزاء الجسم، ليصل الأوكسجين والغذاء لكلّ أنسجة الجسم.

كما يأخذ الدم النفايات من الأنسجة، ويعود عبر الأوردة إلى الأذين الأيمن، ومنه إلى البطين الأيمن، ليتم ضخّه إلى الرئة، عبر الشريانين الرئويين الأيسر والأيمن، لتتمّ تنقيته من غاز ثاني أكسيد الكربون وبعض الغازات الأخرى، وإشباعه بالأوكسجين، ليرجع الدم عبر الأوردة الرئويّة إلى الأذين الأيسر، ومنه إلى البطين الأيسر للقلب، حيث يتمّ ضخّه مرّة أخرى عبر الأبهر (الأورطي)، ومنه إلى جميع أجزاء الجسم وهكذا دواليك.

ويدور جهاز الدورة الدمويّة في جسم الإنسان ٤٠٠٠ دورة في كلّ ٢٤ ساعة، أي حوالي ١٦٧ دورة في كلّ ساعة، أي حوالي ثلاث دورات في كلّ دقيقة. وأنّ الشرايين والأوردة والشعيرات الدمويّة، التي يجري الدم من خلالها، لو مددتها على الأرض، فإنّ طولها يصل إلى ٤ مرّات مسافة محيط الأرض. أي أنّ الشرايين والأوردة والشعيرات الدمويّة – بطولها - يمكنها أن تلفّ الأرض ٤ مرّات.

ويقوم جهاز الدورة الدمويّة بضخّ حوالي ٦ لترات من الدم في كلّ دقيقة، تصل إلى ١٨ لترًا إذا بذل الإنسان مجهودًا.

ومهمّة هذا الجهاز هو:-

- نقل المواد الغذائيّة المهضومة والأوكسجين وثاني أكسيد الكربون والهرمونات والأنزيمات والمواد النتروجينيّة.

- تنظيم درجة حرارة الجسم.

- تنظيم عمليات التحوّل الغذائي.

- تنظيم البيئة الداخليّة للجسم مثل درجة الحموضة في الأنسجة وكميّة المياه.

- حماية الجسم من الجراثيم.

- حماية الدم نفسه من عمليّة النزف وذلك بجعله يتجلّط.

ويتكوّن جهاز الدورة الدمويّة من القلب والأوعية الدمويّة، التي تتعاون معًا، لتأمين دورة الدم في مختلف أنحاء الجسم.

القلب هو عضو عضلي مجوّف، يدفع الدم ضمن جهاز الدوران بما يشبه عمل المضخّة، مشكّلًا العضو الرئيسي في الجهاز القلبي الوعائي. وتشكّل العضلة القلبيّة النسيج الفعّال وظيفيًّا من القلب، حيث يؤمّن تقلّصها انتقال الدم وضخّه من القلب إلى باقي الأعضاء، لتزويدها بالأوكسجين المحمّل بالدم القادم من الرئتين، ومن ثمّ يقوم القلب بضخّ الدم القادم من الأعضاء، والمحمّل بثاني أكسيد الكربون، إلى الرئتين لتنقيته وتحميله من جديد بالأوكسجين.

ويتكوّن القلب من أربع حجرات هي:

- البطين الأيمن.

- الأذين الأيمن.

- البطين الأيسر.

- الأذين الأيسر.

والأوعية الدمويّة هي أوعية أنبوبيّة الشكل، يجري الدم فيها، وهي على ثلاثة أنواع:-

- الشريان: هو أنبوب ذو جدار عضلي سميك، قادر على التقلّص، ينقل الدم من القلب إلى أعضاء الجسم المختلفة.

- الوريد: هو أنبوب ذو جدار رقيق وغير عضلي، يحمل الدم من أجزاء الجسم إلى القلب.

- الشعيرات الدمويّة: هي أنابيب رقيقة، تتألف من طبقة واحدة من الخلايا الطلائية، تسمح بانتشار الغذاء والأوكسجين من الدم إلى الخلايا، وانتشار ثاني أوكسيد الكربون والإفرازات الضارّة والفضلات من الجسم إلى الدم.

تنقسم الدورة الدموية إلى قسمين هما:

- الدورة الدمويّة الكبرى (الجهازيّة).

- الدورة الدمويّة الصغرى (الرئويّة).

أمّا الدورة الدمويّة الكبرى (الجهازيّة) فهي جزء من جهاز القلب والأوعية الدمويّة، ومهمّتها كالآتي:-

- تحمل الدم المؤكسد بعيدًا عن القلب إلى بقيّة أنحاء الجسم، وتعيد الدم الغير المؤكسد إلى القلب ثانية.

- يغادر الدم المؤكسد – القادم من الرئة – القلب، عن طريق الشريان الأبهر (الأورطي)، ومن هناك ينتشر الدم المؤكسد إلى جميع أعضاء الجسم وأنسجته، التي تمتصّ الأوكسجين، عبر الشرايين والأوعية الدمويّة الشعريّة.

- يتمّ امتصاص الدم الغير المؤكسد، عن طريق الأوردة الصغيرة، ثمّ الأوردة الأكبر، ثمّ تنقلها إلى الوريدين الأجوفين الأعلى والأسفل، والتي تصب في الجزء الأيمن من القلب، وبذلك تكتمل الدورة.

- بعدها يتمّ إعادة أكسدة الدم، عن طريق ذهابه إلى الرئتين، عن طريق الشريان الرئوي، والتي تسمّى الدورة الدمويّة الصغرى، وبعدها ترجع إلى الدورة الدمويّة الكبرى.

أمّا الدورة الدمويّة الصغرى (الرئويّة) فهي جزء من جهاز القلب والأوعية الدمويّة، ومهمّتها كالآتي:-

- تحمل الدم الغير المؤكسد بعيدًا عن القلب إلى الرئتين، وتعيد الدم المؤكسد إلى القلب ثانية.

- يغادر الدم الغير المؤكسد الجزء الأيمن من القلب، عن طريق الشرايين الرئويّة التي تذهب بالدم إلى الرئتين، وهناك تقوم كريات الدم الحمراء بتحرير غاز ثاني أكسيد الكربون، وتتّحد بالأوكسجين، خلال عمليّة التنفّس.

- يغادر الدم المؤكسد الرئتين، عن طريق الأوردة الرئويّة، والتي تصبّ في الجزء الأيسر من القلب، وبذلك تكتمل الدورة الدمويّة الصغرى (الرئويّة).

- بعدها يتمّ توزيع الدم إلى أنحاء الجسم كافّة، عن طريق الدورة الدمويّة الكبرى، قبل أن يرجع ثانية إلى الدورة الدمويّة الصغرى.

أما كيف تحدث الدورة الدمويّة ؟

- تحمل الأوردة الدم من الجسم إلى القلب (الأذين الأيمن)، ومنه ينتقل الدم إلى البطين الأيمن، الذي يضخّ الدم، عبر الشرايين، إلى الرئتين، ويكون الدم غير مؤكسد.

- يحدث للدم داخل الرئتين تبادل للغازات، فينطلق غاز ثاني أكسيد الكربون من الدم. ويتمّ امتصاص غاز الأوكسجين، فيتحوّل لون الدم من أحمر داكن مائل إلى الزرقة، إلى أحمر زاهي اللون.

- تقوم الأوردة الرئويّة بنقل الدم من الرئتين إلى الأذين الأيسر، الذي يتقلّص بدوره دافعًا الدم إلى البطين الأيسر، الذي يضخّ الدم إلى جميع أعضاء الجسم، عبر الشريان الأبهر (الأورطي).

أنا أعلم أنّ هذا الموضوع في صيغته الطبّيّة صعب الفهم ، بيد أنّه في صيغة الحكاية يكون سهل الفهم. ولذلك ولتيسير فهم الموضوع نستعمل لسان حال قطرة دم، وهي تحكي حكايتها وما يحدث لها في هذه الدورتين: الصغرى والكبرى.

لسان الحال وما أدراك ما لسان الحال !!! إذا عسعس عليَّ الليل وادلهمت عليَّ الظلمات، ودخلتُ في سراديب حالكة مظلمة، وتحيّرتُ في متاهات الطريق، وظهرَ لي من سار في مثل تلك الظلمات والمتاهات، وأرشدَني بلسانِه (أو بلسانِ حالهِ) انفرجت عليَّ صعوبات المشكلة. وفي حالتنا الآن ظهرت قطرة دم لتيسير ما تعسّر على أفهامنا ... وقالت:-

إنّني أنا قطرة دم. وصلت إلى الرئتين، وسلّمتُ هناك ثاني أوكسيد الكربون الذي كان معي. أردتُ أن أستريح قليلًا، لكنّني لم أستطع ، وذلك بسبب الأوكسجين الذي حمّلوه عليَّ.

وبعد ثوان وجدتُ نفسي في الأمعاء الدقيقة، وهناك حملتُ الغذاء (الطعام الذي يأكله الناس وتبقى في أمعائهم). ومرّة أخرى أردت أن أستريح. لكنّ تيار الدم سحبني إلى الأمام.

فوصلت إلى خلايا الجسم، التي قدّمتُ لها الأوكسجين والغذاء الذين كنتُ أحملهما، فنزلتُ عليها بما كنتُ أحمله من البركات، كـ ماء المزن حين ينزل على الصحاري الجافّة فيحوّلها إلى أراضي خصبة ريّانة. ارتحت قليلًا، وسررتُ بأنّه يمكنني الآن أن أستريح طويلًا. لكن لا !

لقد أعطتني خلايا الجسم ثاني أوكسيد الكربون وفضلات أخرى. وخلال مسيرتي تخلّصتُ من مواد الفضلات. لكنّ ثاني أوكسيد الكربون بقي على كتفي. وبعد ثوانٍ عدتُ إلى حيث خرجتُ - أي إلى الرئتين. وهناك تخلّصت من ثاني أوكسيد الكربون. وظننتُ أنّني الآن أستطيع أن أستريح، إلا أنّني كنتُ مخطئة.

أعطتني الرئتان مرة أخرى أوكسجينًا، وتجدّدت رحلتي. وكنتُ أعود دائمًا إلى المكان الذي خرجتُ منه. نظرتُ إلى الساعة. فقد استمرّت كلّ دورة حوالي دقيقة. هكذا بقيتُ أسير بلفّ ودوران في الأوعية الدمويّة كلّ الوقت.

آه ! لقد نسيتُ أن أخبركم بأنّني كنتُ أصل دائمًا إلى مكانٍ فيه ضجّة كبيرة. وهناك كنتُ أتلقّى دفعة قويّة، تدفعني إلى جدران أنبوب الدم بقوّة. أظنّ أنّ هذا المكان هو القلب.

يتدفّق الدم في جسمنا بمسار مقفل - أي في دورة. كلّ قطرة دم تخرج من القلب، تعود إليه خلال دقيقة، ثمّ تبدأ دورة جديدة. وفي هذا المسار المقفل أو الدورة، كان الدم يوزّع الأغذية، التي كان يحملها معه من الأوكسجين والطعام الشهيّ المغذّي، على الخلايا ، فتنزل عليها نزول ماء السماء الزلال على العطاشى، أو العسل المصفّى على الجياع.

وفي هذه الدورة الدمويّة، يُضخّ الدم من القلب بواسطة الشرايين، ويصل عن طريق الشعيرات الدمويّة إلى جميع خلايا الجسم، ثمّ يرجع عن طريق الأوردة إلى القلب. ومنه يضخّ الدم إلى الرئتين، ليعطي ثاني أوكسيد الكربون ويأخذ الأوكسجين، ثمّ يعود الدم إلى القلب ليُضخّ ثانية إلى كلّ أعضاء الجسم.

إنّ القلب هو عضو عضليّ قويّ مرن. إنّه ينقبض وينبسط لكي يضخّ الدم إلى كلّ أعضاء الجسم، ثم يعود فيمتصّه ثانيةً ... وهكذا دواليك.

على امتداد طول القلب، يوجد حاجز سميك، وهو يفصل القلب إلى قسمين. وكلّ قسم منهما مفصول هو أيضًا إلى قسمين: القسم العلوي يُدعى (الأذين)، والقسم السفلي يُدعى (البطين).

يوجد حاجز سميك في وسط القلب من أعلى إلى أسفل. ويوجد صمّامان في كلّ نصفٍ من القلب:

- الصمّام الرئوي، وصمّام ثلاثي الشرف (على النصف الأيمن من القلب).

- الصمّام الأبهري، وصمّام ثنائي الشرف أو التاجي (على النصف الأيسر من القلب).

وفي أعلى القلب يوجد أذين أيمن على القسم الأيمن من القلب، وأذين أيسر على القسم الأيسر من القلب. وفي أسفل القلب يوجد بطين أيمن على القسم الأيمن من القلب، وبطين أيسر على القسم الأيسر من القلب.

الأذين الأيسر والبطين الأيسر موجودان قريبًا من الذراع اليسرى في القفص الصدري. والأذين الأيمن والبطين الأيمن بعيدان عن الذراع اليسرى.

في الدورة الدمويّة الكبرى، يُضخّ الدم إلى كلّ خلايا الجسم، كي يجهّزها بالمواد الغذائيّة والأوكسجين.

وفي الدورة الدمويّة الصغرى، يُضخّ الدم إلى الرئتين، كي يُستبدل ثاني أوكسيد الكربون بالأوكسجين.

الدورة الدمويّة الكبرى تخرج من البطين الأيسر في القلب (الجانب الأسفل من القلب)، عن طريق الشريان الرئيسي المسمّى بالشريان الأبهر (الأورطي). هذا الشريان يتشعّب إلى شرايين كثيرة وشعيرات، تزوّد خلايا الجسم بالأوكسجين والغذاء.

يعود الدم عن طريق الأوردة، مع ثاني أوكسيد الكربون، إلى الأذين الأيمن في القلب (الجانب الأعلى من القلب)- هناك مواد وفضلات أخرى يتمّ نقلها خلال الدورة إلى الكليتين.

وفي دورة تبادل الغازات في الدورة الدمويّة الصغرى، تجلب الأوردة إلى القلب ثاني أوكسيد الكربون من خلايا الجسم، والذي يجب التخلّص من هذا الغاز واستبداله بالأوكسجين - وهذه عمليّة تبادل الغازات.

وتقوم دورة الدم الصغرى باستبدال الغازات: تخرج دورة الدم الصغرى من البطين الأيمن في القلب، وتصل إلى الرئتين، حيث تعطي ثاني أوكسيد الكربون وتأخذ الأوكسجين، وتعود إلى الأذين الأيسر في القلب.

الأذين الأيسر في القلب يستوعب الدم المشبع بالأوكسجين القادم من الرئتين، والبطين الأيسر هو الذي يضخّ الدم مع الأوكسجين إلى كلّ خلايا الجسم. أي في الجهة اليسرى من القلب يمرّ فقط دم مشبع بالأوكسجين.

يصل الدم من كلّ خلايا الجسم، ومعه ثاني أوكسيد الكربون، إلى الأذين الأيمن في القلب. البطين الأيمن في القلب هو الذي يضخّ الدم إلى الرئتين. أي أنّ في الجهة اليمنى من القلب يمرّ فقط دم مشبع بثاني أوكسيد الكربون.

هناك في القلب مضخّتان: الجهة اليمنى من القلب هي مضخّة، والجهة اليسرى من القلب هي مضخّة ثانية. ويوجد فصل تام بين المضخّتين، لكنهما تشتغلان في ذات الوقت وبتنسيق تام بينهما.

إحدى المضخّتين تضخّ الدم في الدورة الدمويّة الكبرى، والمضخّة الثانية تضخّ الدم في الدورة الدموية الصغرى.

معجزة جنين الإنسان

لقد ذكرتُ في كتابي (قدوة الفقهاء والعارفين) هذه المعجزة الربّانيّة على لسان والدي السيّد حسين العالم قدّس سرّه في كتابه (المجالس) كالتالي:-

عجائب خلق الجنين [1]

ومن أعجب قضايا الجنين، أنّه ثبت في علم الحيوان، أنّه خلال الدورة الدمويّة في الإنسان والحيوان، تأخذ الشرايين دمًا صافيًا زلالًا من القلب، ثمّ تقسّمهُ وتوزّعهُ على جميع الأعضاء والجوارح، كي تأخذ كلّ واحدةٍ منها نصيبها من الدم وتتغذّى به.

ووظيفة العروق أن تستلم الدم الفاسد المخلوط بالفضولات من أعضاء البدن إلى الرئة، كي تعمل الرئة على تصفية الدم من المواد الفاسدة، حتى يعود دمًا صافيًا زلالًا مرّة أخرى، ويرجع إلى القلب، ثمّ يرجع مرّة أخرى إلى الشرايين وإلى الأعضاء، وهكذا دواليك في دورة دمويّة مستمرّة.

وأمّا الدورة الدمويّة في الجنين، فهو على عكس ذلك، بمعنى أنّ الجنين يتلقّى غذاءه من المشيمة، التي تتلقّاه بدورها من رحم الأم عن طريق الوريد، ثمّ ترجع الفضلات أيضًا إلى المشيمة، إلى مكان خاص فيها.

وسرّة الجنين في المشيمة ترتبط برحم الأمّ بواسطة الوريد، فيندفع الدم الصافي الزلال من الرحم عن طريق الوريد إلى السرّة، ومن ثمّ إلى المشيمة، حيث يتوزّع الدم بقدر على أعضاء الجنين، كي تكبر هذه الأعضاء رويدًا رويدًا، ثمّ تحمل الشرايين الفضولات والمواد الفاسدة من الأعضاء إلى المشيمة مرّة أخرى، بحيث تكون الدورة الدمويّة في الجنين على هذه الصورة، بمعنى

[1] ومن العجب العجاب أنّ التفاصيل الدقيقة التي ذكرها السيّد حسين العالم قدّس سرّه، قبل حوالي تسعين عامًا، عن خلق الجنين، تنطبق في مجملاتها انطباقًا كاملًا مع علم الطب الحديث.

أنّ الدم الصافي الزلال يكمل دورته عن طريق الوريد، وتخرج الفضلات عن طريق الشرايين إلى المشيمة.

ولكن بعد الولادة مباشرة تنعكس الآية، وتأخذ الدورة الدمويّة مسيرها من القلب إلى الأعضاء عن طريق الشرايين، ومن الأعضاء إلى الرئة[1] عن طريق العروق، وذلك لتصفية الدم من المواد الفاسدة، فويل لمن جحد المدبر !!!

فلنرجع إلى الموضوع السابق، بأنّه بعد مرحلة العلقة، تزداد حمرة العلقة، وتظهر أكثر فأكثر، حتى تصبح شبيهة بالمضغة، ثم يهيج فيها الهواء الساخن فتصبح مضغة. فيبدأ الخالق المصوّر، بقدرته الكاملة، بإظهار مكان الجوارح والأعضاء، وبتصوير هيئاتها وأشكالها وصورها.

وعلى الرغم من وجود التشابه بين هذه الأعضاء والجوارح في هذه المرحلة، إلا أنّ الخالق المصوّر يميّزها، بعضها عن بعض، بأمور مختلفة يقسّمها بينها، كالعروق والشرايين، والعصب والغضروف والوتر، والعظم واللحم والشحم والجلد، ثمّ رويدًا رويدًا تظهر الأعضاء وهي مختلفة الشكل.

ويصوّر الخالق المصوّر رأس الجنين مستديرًا، ويفتح منافذ العينين والأذنين والفم والأنف وغيرها من المنافذ، ويخلق اليدين والرجلين، ويجعل لكلّ منها خمسة أصابع، ويخلق لكلّ إصبع رأس الأنامل وظفرًا. ويجعل الخالق المصوّر في رأس الجنين مخًّا، ويخلق في باطنه قلبًا وكبدًا وطحالًا ورئة، ومعدةً ورحمًا ومثانةً وغيرها من الأعضاء، ويجعل لكلّ عضو هيئة خاصّة وشكلًا مخصوصًا، ويودع في كلّ عضو وظيفة معيّنة وعملًا خاصًّا.

---

[1] تتم تصفية الدم بثلاثة طرق: أولًا عن طريق الرئة لتصفية ثاني أكسيد الكربون، كي يحلّ محلّه الأكسجين، فالعمليّتان تتمّان عن طريق التنفّس بالزفير والشهيق. ثانيًا عن طريق الكلى لتصفية الدم من مخلّفات التغذية وجزء من السموم. وثالثًا عن طريق الكبد لتصفية الدم من متحطّمات الكريّات الحمراء وبواقي السموم.

والجنين في جميع هذه الأحوال مستقرّ في ظلمة الرحم، ومسجون في كيس، وغاطس في دم الحيض، كفّاه على طرفي الوجه، ومرفقاه على خاصرتيه، وركبتاه على صدره، وذقنه بين ركبتيه، وسرّته متّصلة بسرّة أمّه، يمتصّ منها غذاءه، والولد وجهه على ظهر أمّه، والبنت وجهها على بطن أمّها.

لا يعلم الجنين شيئًا عن الرسوم البديعة التي تُرسم عليه، ولا يعلم بذلك أبوه، ولا تعلم أمّه، ولا يرى في باطن الأمّ رسّام، ولا يظهر في خارجها مصوّر.

ولم يكتف الخالق المصوّر بهذا، بل أصبغ على الجنين الصورة الإنسانيّة، يعني النفس الناطقة، التي يستطيع بها الطيران إلى أوج السعادة، ويتمكّن بها أن يتحوّل إلى مجرّد صرف، حيث قال الله تعالى: { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ } [1].

وهذه الجملة من هذه الآية الكريمة تدلّك جيّدًا على أنّ وطن حقيقتك ليس هنا، ولكن يجب عليك الطيران إلى عالم وسيع ومقام منيع، وأن تتخلّص من علائقك الماديّة.

[1] سورة المؤمنون الآية ١٤.

معجزة بيضة الدجاجة

وبمناسبة بيضة الدجاجة وما يتمّ فيها من عمليّة معجزة تحيّر العقول، فلقد ذكرتُ في كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) تحت فصل (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) التالي:-

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْكُلَيْنِيّ رحمه الله [1] :

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ إِنّ عَبْدَ اللهِ الدّيصَانِيّ سَأَلَ هِشَامَ بْنَ الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ: أَلَكَ رَبّ ؟ فَقَالَ: بَلَى. قَالَ: أَقَادِرٌ هُوَ ؟ قَالَ: نَعَمْ قَادِرٌ قَاهِرٌ. قَالَ: يَقْدِرُ أَنْ يُدْخِلَ الدّنْيَا كُلّهَا الْبَيْضَةَ لَا تَكْبُرُ الْبَيْضَةُ وَ لَا تَصْغُرُ الدّنْيَا ؟

قَالَ هِشَامٌ: النّظِرَةَ[2] . فَقَالَ لَهُ: قَدْ أَنْظَرْتُكَ حَوْلًا. ثُمّ خَرَجَ عَنْهُ، فَرَكِبَ هِشَامٌ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ أَتَانِي عَبْدُ اللهِ الدّيصَانِيّ بِمَسْأَلَةٍ لَيْسَ الْمُعَوّلُ فِيهَا إِلّا عَلَى اللهِ وَ عَلَيْكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: عَمّاذَا سَأَلَكَ ؟ فَقَالَ: قَالَ لِي كَيْتَ وَ كَيْتَ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: يَا هِشَامُ كَمْ حَوَاسّكَ ؟ قَالَ: خَمْسٌ. قَالَ: أَيّهَا أَصْغَرُ ؟ قَالَ: النّاظِرُ. قَالَ: وَ كَمْ قَدْرُ النّاظِرِ ؟ قَالَ: مِثْلُ الْعَدَسَةِ أَوْ أَقَلّ مِنْهَا. فَقَالَ لَهُ: يَا هِشَامُ فَانْظُرْ أَمَامَكَ وَ فَوْقَكَ وَ أَخْبِرْنِي بِمَا تَرَى ؟ فَقَالَ: أَرَى سَمَاءً وَ أَرْضاً وَ دُوراً وَ قُصُوراً وَ بَرَارِيَ وَ جِبالًا وَ

[1] في أصول الكافي ٧٤/١ للعلامة الكليني، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، طبعة دار الكتب الإسلاميّة المعروفة، تحقيق غفاري، وهي في برنامج مكتبة أهل البيت.

[2] أي أمهلني.

أَنْهَاراً. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللّهِ عليه السلام: إِنّ الّذِي قَدَرَ أَنْ يُدْخِلَ الّذِي تَرَاهُ الْعَدَسَةَ أَوْ أَقَلّ مِنْهَا قَادِرٌ أَنْ يُدْخِلَ الدّنْيَا كُلّهَا الْبَيْضَةَ لَا تَصْغَرُ الدّنْيَا وَ لَا تَكْبُرُ الْبَيْضَةُ !

فَأَكَبّ هِشَامٌ عَلَيْهِ وَ قَبّلَ يَدَيْهِ وَ رَأْسَهُ وَ رِجْلَيْهِ وَ قَالَ: حَسْبِي يَا ابْنَ رَسُولِ اللّهِ، وَ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَ غَدَا عَلَيْهِ الدّيَصَانِيّ. فَقَالَ لَهُ: يَا هِشَامُ إِنّي جِئْتُكَ مُسَلّماً وَ لَمْ أَجِئْكَ مُتَقَاضِياً لِلْجَوَابِ، فَقَالَ لَهُ هِشَامٌ: إِنْ كُنْتَ جِئْتَ مُتَقَاضِياً فَهَاكَ الْجَوَابَ.

فَخَرَجَ الدّيَصَانِيّ عَنْهُ حَتّى أَتَى بَابَ أَبِي عَبْدِ اللّهِ عليه السلام، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ، فَلَمّا قَعَدَ قَالَ لَهُ: يَا جَعْفَرَ بْنَ مُحَمّدٍ دُلّنِي عَلَى مَعْبُودِي. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللّهِ عليه السلام: مَا اسْمُكَ فَخَرَجَ عَنْهُ وَ لَمْ يُخْبِرْهُ بِاسْمِهِ.

فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: كَيْفَ لَمْ تُخْبِرْهُ بِاسْمِكَ ؟ قَالَ: لَوْ كُنْتُ قُلْتُ لَهُ عَبْدُ اللّهِ كَانَ يَقُولُ مَنْ هَذَا الّذِي أَنْتَ لَهُ عَبْدٌ ؟ فَقَالُوا لَهُ: عُدْ إِلَيْهِ وَ قُلْ لَهُ يَدُلّكَ عَلَى مَعْبُودِكَ وَ لَا يَسْأَلُكَ عَنِ اسْمِكَ. فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا جَعْفَرَ بْنَ مُحَمّدٍ دُلّنِي عَلَى مَعْبُودِي وَ لَا تَسْأَلْنِي عَنِ اسْمِي.

فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللّهِ عليه السلام: اجْلِسْ، وَ إِذَا غُلَامٌ لَهُ صَغِيرٌ فِي كَفّهِ بَيْضَةٌ يَلْعَبُ بِهَا. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللّهِ عليه السلام: نَاوِلْنِي يَا غُلَامُ الْبَيْضَةَ، فَنَاوَلَهُ إِيّاهَا. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللّهِ عليه السلام: يَا دَيَصَانِيّ هَذَا حِصْنٌ مَكْنُونٌ لَهُ جِلْدٌ غَلِيظٌ، وَ تَحْتَ الْجِلْدِ الْغَلِيظِ جِلْدٌ رَقِيقٌ، وَ تَحْتَ الْجِلْدِ الرّقِيقِ ذَهَبَةٌ مَائِعَةٌ وَ فِضّةٌ ذَائِبَةٌ، فَلَا الذّهَبَةُ الْمَائِعَةُ تَخْتَلِطُ بِالْفِضّةِ الذّائِبَةِ، وَ لَا الْفِضّةُ الذّائِبَةُ تَخْتَلِطُ بِالذّهَبَةِ الْمَائِعَةِ، فَهِيَ عَلَى حَالِهَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا خَارِجٌ مُصْلِحٌ فَيُخْبِرَ عَنْ صَلَاحِهَا، وَ لَا دَخَلَ فِيهَا مُفْسِدٌ فَيُخْبِرَ عَنْ فَسَادِهَا، لَا يُدْرَى لِلذّكَرِ خُلِقَتْ أَمْ لِلْأُنْثَى، تَنْفَلِقُ عَنْ مِثْلِ أَلْوَانِ الطّوَاوِيسِ، أَ تَرَى لَهَا مُدَبّراً ؟

قَالَ: فَأَطْرَقَ مَلِيّاً ثُمّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَ أَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ وَ أَنّكَ إِمَامٌ وَ حُجّةٌ مِنَ اللّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَ أَنَا تَائِبٌ مِمّا كُنْتُ بِه.

تجربة إبراهيم عليه السلام

ويواصل نبيّ الله إدريس عليه السلام في الفصل الأول:

واعلمي أنّ الشيء الذاتيّ بالحقيقة الأصليّ التامّ النوري هو المفيد الحِكَم اللطيفة والتمييزات الشريفة والحياة الدائمة وسائر الأشياء التي هي جزئيّات له لا أجزاء، وهو كُلِّيٌّ لها لا كلًّا. فاعتبري ذلك يا نفسُ وتيقّظي واحذري الغفلة والتواني، واستعملي التهذُّب من أوساخ الطبيعة؛ واستعيني على ذلك بالخضوع والرغبة والابتهال إلى ينبوع الخير ومظهره، وأصل العقل ومُبْدِعه، ومفيدِ الحياة والحكمة والجود التامّ والرحمة، تَحْيَيْ بذلك يا نفسُ وتسعدي.

واعلمي يا نفسُ ! إنّ الشيء الذي لا يتغيّر بين زمانين مختلفين هو الشيء الذاتيّ بالحقيقة الأصليّ التّامّ النّوريّ، وهو منبع الحِكَم اللطيفة والتمييزات الشريفة والحياة الدائمة الخالدة، وكلّ شيء سواه عرضيّ، يتغيّر من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل، ونهايته بلا شكّ ولا ريب الموت والفناء.

فاعتبري يا نفسُ ! بتجربة إبراهيم عليه السلام، الذي وصل بالعقل الفطريّ الصافي البريء إلى الحقيقة الكبرى وهي: أنّ كلّ ما يأفل ليس أصلًا، وإنّما تجلّيات من الأصل، تأتي وتروح، كلّ لها دورة حياتيّة معيّنة، بعضها لثوان فقط، وبعضها لدقائق، وبعضها لساعات، وبعضها لأيّام، وبعضها لسنوات، وبعضها ربّما لمليارات السنين، كالشمس والنجوم والمجرّات ونجوم الكازار Quasar (التي هي ألمع النجوم) والثقوب السوداء، وهي أثقل الأجسام طرًّا.

فالشمس في تجربة إبراهيم الخليل عليه السلام ربّما تعيش لخمس عشر مليارًا من السنين، وباقي النجوم حسب حجمها تعيش أكثر أو أقل. وبعض الحشرات ربّما تعيش لدقائق، وبعض الخلايا على أجسامنا - وعلى الأخصّ خلايا الجلد - ربّما تعيش لثواني، ثمّ تندثر وتبيد وتفنى، والباقي هو الله الأحد الصمد، خالق النجوم والشمس والقمر والأرض والمجرّات والثقوب السوداء، وخالق الذباب والبعوض والحشرات الصغيرة والكبيرة، وخالق البكتريا والفيروس والميكروبات والجراثيم.

والشمس والقمر والنجوم في تجربة إبراهيم عليه السلام أجسام ماديّة تغيّر أمكنتها في أزمنة مختلفة، في تركيب من حركتها المطلقة وحركتها النسبيّة (التي تترائى لنا أنّها الحركة) بسبب حركة الأرض حول الشمس، فهي لا يمكن أن تكون ربًّا يُعْبَد، والأصل هو الذي فطر السموات والأرض وفطر النجوم والشمس والقمر والمجرّات والثقوب السوداء، وهو الربّ الذي يجب أن يُعْبَد.

فوجّه إبراهيم عليه السلام وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما كان من المشركين، كما قال الله تعالى[1] : {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}. بمعنى التمركز المطلق على الحقّ تعالى ونفي التكاثر الذي هو ما سوى الله من مخلوقات ومصنوعات وتجلّيات فانية زائلة بائدة.

وأنّه عليه السلام سلّم نفسه تمامًا لله العظيم المدبّر لكلّ شؤونه الحياتيّة والمماتيّة، حيث يقول الله تعالى[2] : { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ }.

---

[1] سورة الأَنعام الآية ٧٩.

[2] سورة الأَنعام الآيات ١٦٢ - ١٦٣.

فلا اختيار له دونه، بل يقول خالصًا مخلصًا دائمًا أبدًا دأبًا سرمدًا كما قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: {إلهي خِرْ لي فى قَضآئِكَ، وَبارِكْ لي فى قَدَرِكَ}.

ويقول كما قال الإمام الحسين عليه السلام وهو ملقى على رمضاء كربلاء يجود بنفسه المطمئنّة الساكنة الأبيّة يخاطب ربّه: {رضًا برضاك تسليمًا لقضاك صبرًا على بلاك لا معبود سواك}.

فاعتبري يا نفسُ ! واحتذي حذوهما حذو النعل بالنعل، ولا تظنّي أنّكِ المدبّرة لشؤونك، ففوّضي أمورك كلّها إلى الله وحده، وظنّي بالله خيرًا، فإنّه لا يفعل بكِ إلا خيرًا، ولا يريد لكِ إلا خيرًا، واطمئنّي إلى قضائِه وقدرِهِ اطمئنان الطفل على ثديي أمّه.

ثمّ إنّك للوصول إلى هذا المقام الرفيع جاهدي نفسكِ للتعالي والتسامي على السفليّات من أوساخ الدنيا وأوساخ الطبيعة، واستعيني على ذلك بالخضوع والخشوع في حضرة الله العظيم، والتوسّل والابتهال إلى ينبوع الخير ومظهره، وأصل العقل والحياة والحكمة والرحمة والجود والكرم، واسكبي الدموع على أعتابِهِ، كي يرفعكِ إلى هذا المقام العالي السامي الرفيع.

فحياتكِ الخالدة يا نفسُ ! تكمن فيما أقول لكِ، فاعتبري وتيقّظي واحذري الغفلة والتواني، وتعرّضي للتزكية من أوساخ الدنيا ومن أوساخ الطبيعة، وتعرّضي لنسيم الرحمن الذي يهبُّ عليكِ من فمي.

وإنّ فيكِ يا نفسُ ! قوّة هدّامة نسمّيها الشيطان، تأخذكِ في الاتّجاه المعاكس، وتغويكِ وتزيّن لكِ الدنيا الزائلة والطبيعة الضيّقة، وتخلق فيكِ الشكّ والريبة تجاه كلّ ما أقول.

فاحذريهِ يا نفسُ ! وجاهديهِ الجهاد الأكبر، فكلّما قويتْ إرادتكِ لجهادِ الشيطان ضعف وتقهقر إلى الوراء، ولكنّه يكمن لكِ دائمًا بالمرصاد بمكرهِ وحيلهِ ومصائدهِ، والتي سوف أنبئكِ بتفاصيلها كي تعيشي في حذر منه.

موجودات مجهريّة

بمناسبة ذكر الموجودات الصغيرة جدًّا من أمثال الفيروسات والميكروبات والبكتريا والجراثيم، فقد ذكرتُ شيئًا عنها في كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) في سياق محاورة الإمام مع جابر بن حيّان كالآتي:

سبب الأمراض الفيروسات والميكروبات والبكتريا

سأل جابر:- ما هي نظريّتك بشأن المرض ؟ هل المرض ينزله الله على الإنسان، أو أنّ الإنسان يمرض بشكل اتفاقي ؟

أجاب الإمام عليه السلام:- الأمراض على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الأمراض التي هي من مشيئة الله جلّ وعلا، ومن جملتها مرض الشيخوخة الذي لا يفلت منه أحد، بل أنّ كلّ أحد منّا يُبتلى بهذا المرض.

النوع الثاني: الأمراض التي يُصاب بها الإنسان بسبب جهله واتّباعه هواه، كالإسراف في الطعام والشراب. فإذا لم يسرف الإنسان في طعامه وشرابه لم يصبه المرض.

النوع الثالث: الأمراض التي يُصاب بها الإنسان بسبب أعداء البدن، والتي تهجم على بدن الإنسان. إلا أنّ البدن يقاوم بوسائله الخاصّة، وإذا لم تنفع المقاومة في ردّ أعداء البدن، فإنّ الإنسان يمرض. وحتّى بعد إصابته بالمرض، فإنّ البدن يستمرّ في مقاومته، وبفضل هذه المقاومة يذهب عنه المرض ويتشافى المريض.

سأل جابر:- من هم أعداء البدن ؟

أجاب الإمام عليه السلام:- أعداء البدن هي موجودات صغيرة جدًّا، التي لا تكاد تبين للعين المجرّدة بسبب صغرها وضآلتها، وهي التي تهجم على بدن الإنسان. وفي البدن أيضًا هناك موجودات صغيرة جدًا، لا تكاد تبين للعين المجرّدة بسبب صغرها وضآلتها، وهي التي تحفظ بدن الإنسان من شرّ الأعداء المهاجمة[1] .

سأل جابر:- ما هي أعداء البدن التي تسبّب الأمراض ؟

أجاب الإمام عليه السلام:- عددها كبير جدًّا، وهي على أنواع مختلفة، إلا أنّ العناصر التي تشكّلها محدودة. كما أنّ الموجودات المُدافعة عن البدن كثيرة جدًّا، وهي على أنواع مختلفة، إلا أنّ العناصر التي تُشكّلها محدودة[2] .

قال جابر:- لا أفهم ما تقول، وكيف أنّ أنواعها كثيرة في حين أنّ العناصر التي تُشكّلها محدودة ؟

قال الإمام عليه السلام:- ألا ترى أنّ الكتاب الذي تقرأه يتضمّن آلاف الكلمات، وكلّ كلمة منها تتشكّل من حروف، وهي حروف الألفباء، التي هي محدودة العدد.

---

[1] قبل ١٣٠٠ سنة لم توجد مجاهر، وفي العصر الحديث وبفضل المجاهر، اكتشفت هذه الموجودات الصغيرة جدًّا، وسمّيت فيروسات وميكروبات وبكتريا وجراثيم. وأوّل من اكتشف البكتريا هو العالم الفرنسي باستور Pasteur. وكم هو مذهل ومدهش علم الإمام جعفر الصادق عليه السلام بهذه الموجودات قبل ١٣٠٠ عام من دون مجاهر !!! وبأنّها هي التي تسبّب الأمراض، وأنّ هناك موجودات مشابهة في بدن الإنسان، تدافع بكلّ شراسة عن البدن، في قبال الأعداء المهاجمة من الخارج.

[2] وكأنّ الامام يراها تحت المجهر ! سبحان الله ! وكأنّه يعيش في زمان باستور Pasteur ! أي ١١٥٠ سنة بعد عصره. إنّه نبوغ لا يتصوّره العقل !!!

وبهذه الحروف المحدودة العدد من حروف الألفباء، يمكن كتابة الآلاف من الكلمات، والتي كلّ كلمة منها - أو مجموعة من الكلمات - تُشكّل معنىً خاصًّا [1] !

إنّ أعداء البدن والموجودات التي تُدافع عن البدن هي مثل الآلاف من الكلمات التي في كتابك، بيد أنّها كلّها تتشكّل من عناصر محدودة العدد، تمامًا كما تشكّل حروف الألفباء الآلاف من الكلمات.

قال جابر:- الآن أفهم ماذا تقول، أحسن من ذي قبل.

فقال الإمام عليه السلام:- أضرب لك مثالًا آخر كي أقرّب لك المعنى: إنّ القسم الأعظم من الحيوانات التي تراها كلّ يوم تتشكّل من عظم ولحم ودم. ولكن يا ترى هل هذه الحيوانات التي تتشكّل من هذه المواد الثلاثة تشبه بعضها البعض ! إنّ الجمل متشكّل من عظم ولحم ودم، كما أنّ القطّة تتشكّل أيضًا من عظم ولحم ودم. وهل يا ترى يوجد أيّ شبه بينهما ! إنّ الجمل يأكل العشب والقطّة تأكل اللحم، في حين أنّ المواد التي تشكّل أبدانهما هي من نوع العظم واللحم والدم، ولو أنّ جنس العظم واللحم والدم فيهما تختلف عن بعضها البعض.

إنّ أعداء البدن والموجودات التي تكمن في أبداننا وتدافع عنها في قبال الأعداء المهاجمة من الخارج كثيرة، بيد أنّ كليهما تتشكّلان من عناصر معدودة من نفس النوع، ولو أنّها تختلف عن بعضها البعض من ناحية الجنس.

[1] ما هذا النبوغ في ضرب الأمثال ! إنّ هذا مستوى لا يقدر عليه إلا ملك مقرّب أو نبيّ مرسل!!

قوّة التصوّر والتمثل

ويواصل نبيّ الله إدريس عليه السلام في الفصل الأول:

يا نفسُ ! إنّ مبدع الأشياء ومُبْدِئَها ومُنْشِئها - جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه - صنعكِ وأبدعكِ وجعلكِ ذات التصوّر والتمثّل: فأمّا التصوّر فتصوّركِ الشيء على حقيقة ما أبدَعهُ مُبْدِعِهِ؛ وأمّا التمثّل فتمثّلكِ ما خفي عنكِ معناه مِنْ عالم العقل بما شاهدتِه في عالم الحسّ، مَثلًا بمثل، ومعنىً بمعنى، كما أن تدلّ ذات الصورة المطبوعة في الشمع على معناها وحقيقتها في الطابع، وكما تدلّ الصورة الممثّلة في الطابع على معنى حقيقتها في نفس ممثّلها ومصوّرها، وكما يؤثّر الماء في الرمل والطين معاني حركاته وتموّجه.

وحتى قوّة التصوّر والتمثّل التي تمتلكينها يا نفسُ ! من أين جئتِ بها ؟ إنّه من عند الله عزّ وجلّ، جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه، مبدع الأشياء ومبدئها ومنشئها، قد صنعكِ وأبدعكِ، وصنع وأبدع كلّ ما فيكِ من العجائب والغرائب، ومنها قوّة التصوّر والتمثّل.

فما أعجب قوّة التصوّر ! إذ أنّ هذه القوّة تمكّنكِ من تصوّر الشيء على حقيقة ما أبدعه الله في عالم الحسّ، من عالم مشرق جميل، وروضة تزهر بالورود الحمراء، وتنتشر عليها الأنوار البيضاء، ومن حقول خضراء مترامية الأرجاء، ومن قبّة زرقاء مزيّنة بالنجوم الزهراء، ومن شمس وضيائها الذي يبهر العيون، ومن قمر ونوره الذي يلهم العاشق المفتون، ويثير دفائن الإبداع في الشاعر المحزون، ومن عبير المسك والورود والأزهار والرياحين، ومن صفير البلابل وخرير الجداول، ومن أنهار جارية ومناظر خلّابة ساحرة، ومن غابات خضراء تظلّلها الأشجار الباسقة،

وتغرّد فيها الطيور الصادحة، وترقص وتشدو وتروح وتغدو في ألوان خلّابة زاهية، وغيرها الكثير من عجائب وغرائب لم تعهدها عيونكِ ولا آذانكِ من قبل.

وربما مكّنكِ قوّة التصوّر على تصوّر الشيء على حقيقة ما أبدعه الله في عالم الحسّ من شكل قبيح، ولكنّه لا شكّ بديع، لأنّ الله تعالى يخلق المتناقضات كي يُعرف الشيء من نقيضه[1] . فقد خلق الله مثلًا الظلام، وليس الظلام بقبيح، لأنّه لولا الظلام لما هنئتِ بنومٍ هنيء. ولولا الظلام لما عرفتِ قدر النور. فالظلام شيء بديع، وكذلك كلّ خلق الله بديع ! سبحانه وتعالى جلّ شأنه وتقدّست أسماؤه.

وأعجب من ذلك قوّة التمثّل التي تمتلكينها، والتي تمكّنكِ من تمثّل ما خفي عنكِ معناه في عالم العقل مما تشاهدينها في عالم الحسّ، مثلًا بمثل، ومعنىً بمعنى.

فعلى سبيل المثال، بمجرّد رؤيتكِ لوحة موناليزا الشهيرة ونضج هذه المرأة ووقارها وأنوثتها الجيّاشة وابتسامتها الغامضة، التي هي في عالم الحسّ، إذ تتوارد على ذهنكِ معاني الأنوثة الناضجة، وقوّة السحر والفتنة فيها، وعقلها المدبّر الناضج، وعواطفها الجيّاشة، وكلّ ما في الأنوثة من معاني وحقائق جذّابة، مثلًا بمثل، ومعنىً بمعنى، وتدركي تقدير رسّامها ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci لهذه المعاني والحقائق الجيّاشة في أنوثة موناليزا، فإذا أنتِ في عالم العقل والفكر تشاهدين ما خفيَ عنكِ معناه، وكأنّ هناك جسر ممدود ما بين عالم الحسّ وعالم العقل تمرّين عليه من هذا العالم إلى ذلك العالم.

[1] وهل تعرفين يا نفسُ ! لماذا معرفة الله بهذه الصعوبة، لأنّه تعالى لا نقيض له ولا ضدّ !

فكما يؤثّر الماء في الرمل والطين معاني حركاته وتموّجه، كذلك تؤثّر ذبذبات حسن الفكر وحسن القول وحسن العمل في النفوس البشريّة حواليكِ معاني بركاتها وحبّها ومودّتها وألطافها ودغدغتها اللطيفة للقلوب البشريّة.

فكلّ هذه القوى التي تمتلكينها يا نفسُ ! من انتقالكِ من عالم الحسّ إلى عالم العقل هي ودائع الله فيك، فاشكريه يا نفسُ ! باستثمار هذه الودائع النفيسة إلى أقصى حدودها، وفي طريق الخير والطهارة والنزاهة والبرّ والإحسان وحسن النيّات، بعيدًا عن طريق الشرّ والدنس والنجاسة والشحّ والطمع وسوء النيّات.

واحذري الشيطان ومكره وحيله ومصائده، فإنّ هذه الودائع النفيسة فيكِ هي كالنار، إن روّضتيها وطبّعتيها وطوّعتيها كانت لكِ نافعة، تمامًا كتطويع النار في الطّبّاخة مثلًا، التي تطبخين عليها من أحسن الأطعمة وألذّها. وإذا تركتِ النار، كما يُترك الحبل على الغارب[1] ، أَحرقتْ النار كلّ ما تملكين يا نفسُ ! وأَحدثتْ النار دمارًا شاملًا.

فاستعملي العقل يا نفسُ ! كي تسعدي في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة. فلا تتركي هذه القوى العظيمة التي أودعها الله فيكِ من دون رادعٍ وزاجرٍ، ومن دون عقلٍ ناضجٍ فاحصٍ مدبّرٍ، ومن دون ترويضٍ وتطبيعٍ وتطويعٍ.

---

[1] الغَارِبُ: الكاهل، الغَارِبُ من البعير : ما بين السَّنام والعُنق، وهو الذي يُلْقَى عليه خِطامُ البعير إذا أُرسل ليرعى حيث شاءَ ويقال للإِنسان : حَبلُك على غارِبِك : اذهبْ حيث شئتَ، وهو من كنايات الطَّلاقِ أَيضًا . ويُضرب المثل عند منح الحرية الكاملة، من دون قيد أو شرط.

أنتِ يا نفسُ ! شعلة من الطاقة، إِنْ تُرِكَتْ لحالها وتبدّدت كانت بهيميّة وظلامًا، وإِنْ جُمِعَتْ أصبحت عمودًا من نور ونفسًا مطمئنّة وسكينة وسلامًا، تمامًا كشعلة من النار إِنْ تُرِكَتْ لحالها كانت نقمة وإِنْ ضُبِطَتْ كانت نعمة.

إكسير السعادة

ويواصل نبيّ الله إدريس عليه السلام في الفصل الأول:

فاكتفي منّي يا نفسُ بحقيقة ما قد أوردته لكِ، واعلمي أنّ جميع ما أنتِ مشاهدة له في عالم الكون والفساد من الصور والصُّنَع إنّما هي تمثيلات وتشكيلات معانٍ [1] هي في عالم العقل بالحقيقة غير زائلة ولا بائدة. وما في العالم الروحانيّ فملاحظته بالمشاهدة العقلية[2] . فيجب على كلّ روحانيّ وجسمانيّ عند بلوغه الكون الجزئيّ أن يتيقّن بالعقل أنّه حقيقة غير زائلة.

فابتغي يا نفسُ ! فيما آتاكِ الله الدار الآخرة ولا تنسي نصيبك من الدنيا[3] ، وانفذي يا نفسُ! ببصر البصيرة في أعماق المظاهر الطبيعيّة حولكِ، فلا ترينّ في الصور إلا مصوّرها وفي الصُّنَع إلّا صانعها، فإنّما المظاهر الطبيعيّة حواليكِ تجلّيات وتعيّنات ليس إلّا، تبرز لكِ بإبداعات المتجلّي ذي الجلال والإكرام، كما تبرز لكِ لوحة موناليزا بإبداعات رسّامها ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci وعبقريّته.

---

[1] المعاني غير زائلة ولا بائدة، بيد أنّ الصور والصُّنَع زائلة وبائدة، لأنّها تمثيلات المعاني وتشكيلاتها، بمعنى تجلّيات المعاني وأشكالها.

[2] الصور والصُّنَع في عالم الحس، بيد أنّ العالم الروحاني فملاحظته بالمشاهدة العقليّة.

[3] يقول الله تعالى في سورة القصص الآية ٧٧: { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }.

فإنّكِ حين تنظرين في اللوحة وفي تفاصيلها الجذّابة الساحرة تقدّرين أعمال ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci وتبرزين إعجابكِ بلطائف إبداعاته.

فكلّ ما في الطبيعة من تجلّيات لا محالة زائلة، بيد أنّ ما تزيّنها من جمال المتجلّي البديع، الذي هو الله سبحانه تعالى، فهو غير زائل ولا بائد.

فانفذي ببصركِ إلى الباقي، ولا تطيعي الشيطان في تضييق نظركِ وأفقكِ، فأنتِ يا نفسُ ! كيانٌ خالدٌ، فلا تخفي عن وجهك معاني الخلود، فاجعليها نصب عينيكِ دائمًا أبدًا دأبًا سرمدًا، فإنّكِ إن لم تفعلي ذلك أوقعكِ الشيطان في هوّة المهالك وفي وادي الفساد، بمعنى إفساد موقعكِ في هذا الكون، حيث خُلقتِ سيّدة الكون، وسجدتْ [1] لكِ كلّ قواها، وإذا أنتِ اليوم في حالة الفساد عَبْدة الشهوات والرغبات، تتلاعب بكِ الغرائز وقوى الطبيعة !

---

[1] يقول الله تعالى في سورة الحجر الآيات ٢٨-٣١: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ }.

وقال تعالى في سورة ص الآيات ٧١-٧٤: { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }.

وقال تعالى في سورة البقرة الآية ٣٤: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }.

وقال تعالى في سورة الأعراف الآية ١١: { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ }.

وقال تعالى في سورة الإسراء الآية ٦١: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا }.

وإذا المال والمنال الذي خوّلكِ الله إيّاه كي تسعدي بإنفاقها في البرّ والإحسان إلى الفقراء والمساكين، وترسيم الابتسامات على الوجوه البائسة حولكِ، فإذا بفعل الشيطان الرجيم أصبحتِ عَبْدة المال والمنال ! لا تسعدين بهِ، بل بالعكس تشقين بالشحِّ وحبِّ الدنيا والالتصاق الشديد بمظاهر الدنيا.

إنّما خُلِقْتِ يا نفسُ ! كي تسعدي لا كي تشقي، بيد أنّ وساوس الشيطان تهوي بكِ في مهالك الشقاء والبؤس. فإذا المال والمنال أصبحت عليكِ نقمة بدل أن تكون نعمة ! وإذا بالدنيا التي أقبلت عليكِ، إنّما أقبلت بالشقاء، لا بالسعادة، لحبّك الدنيا !

فإذا عصيتِ الشيطان وأخرجتِ حبّ الدنيا من قلبكِ ترينّ بأمّ عينيكِ إكسير السعادة في متناول يديكِ، ويتحوّل الشقاء إلى السعادة، والشحّ والضيق إلى البركة. فحبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، فإذا أعرضتِ عن الدنيا انفتحت لك أبواب الإكسير، وتحوّل كلّ شيء حواليك إلى نعمة وبركة، وتفجّرت الحكمة من جوانبكِ، لأنّكِ بهذا الإعراض اتّصلتِ بينبوع الخير والسعادة ومنبع الجود والكرم في هذا الوجود البحت البسيط.

فلا ترينّ يا نفسُ ! إلّا خيرًا وسعادَة وجودًا وكرمًا تملأ حياتكِ وتثريها. فاخرجي عن الكون الجزئيّ إلى الكون الكلّيّ، وتيقّني بالعقل إنّ هذا الكون الكلّيّ حقيقة غير زائلة. واخرجي من عالم

وقال تعالى في سورة الكهف الآية ٥٠: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا }.

وقال تعالى في سورة طه الآية ١١٦-١١٩: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى }.

المادة والأجسام إلى عالم الحقيقة والروحانيّات، تملكين هناك عالم المادة والأجسام بدل أن تكوني مملوكة لها.

وما ترينّها يا نفسُ ! في عالم الروحانيّات بالمشاهدة العقليّة، رغم أنّكِ في الكون الجزئيّ، هي الحقيقة العظمى وهي خالدة غير زائلة، لأنّكِ في عالم الروحانيّات وبالمشاهدات العقليّة إنّما ترينّ البارئ المصوّر المليك المقتدر، الذي هو الجوهر المهيمن على السموات والأرض، وخالقها وبارئها وفاطرها، والذي هو الجوهر البارز في كلّ تجلّيات الوجود.

اللذّة العقليّة الكاملة

ويواصل نبيّ الله إدريس عليه السلام في الفصل الأول:

وإنّما يصوّر العقل ذاته لذاته في الهيولى، ثم ينظر بذاته إلى معاني ذاته وصُوَرها فيلتذّ بذلك إعجابًا منه بذاته، إذ اللذّة العقليّة هي ممّا يناله العقل من ذاته بذاته، لا بشيء خارج عنه، ولا بعرض عارض ، بل من ذاته لذاته. وهذه هي اللذّة الحقّ الدائمة الأبديّة.

يا نفسُ ! تيقّني واقتني معرفة الأشياء بآنيّاتها وماهيّاتها، ولا تحتفلي بمعرفة كيفيّاتها وكميّاتها، لأنّ المطلبين الأوّلين بسيطان أزليّان، ولا وسيط بين النفس وبينهما، وأنّ المطلبين الآخرين مركّبان زائلان زمانيّان مكانيّان. واعلمي يا نفسُ أنّ علم التركيب لن ينفصل معك مجرّدًا محمولًا في ذاتك عند مفارقتك الحسّ. فخذي علم البسيط، وذري علم المركّب.

أضرب لكِ يا نفسُ ! مثالًا صغيرًا: إنّ إنجازًا صغيرًا مثل الكتاب الذي ينجزه العقل، إنّما يصوّر ذاته لذاته في هذا الإنجاز الماديّ الصغير، والذي يحتوي على المحتوى العقليّ لذات الكاتب. ثمّ ينظر العقل بذاته إلى معاني ذاته وصورها الماديّة، فيلتذّ بذلك إعجابًا منه بذاته، وهو ما نسمّيه في علم النفس بالتحقيق الذاتيّ، أو برضا النفس الكامل بإنجازاتها. وهي اللذّة العقليّة ممّا يناله العقل من ذاته بذاته، لا بشيء خارج عن ذاته، بل من ذاته لذاته.

وهذا الإنسان الصغير مثال صغير يحتاج إلى الإنجازات وتحقيق الذات، وهو ينال هذه اللذّة العظيمة، وهو يحتاج إليها لتحقيق الذات. ولكن كلّما تسامى الإنسان - أو بتعبير الإمام عليّ عليه السلام: { عَظُمَ اَلْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ } - ولم يرَ غير الخالق، بمعنى الفناء الكامل في الله، فإنّ احتياجه للإنجاز وتحقيق الذات، واللذّة النسبيّة التي تتبع ذلك، تنمحي رويدًا رويدًا، وتصبح هذه اللذّة - كما يقول نبي الله إدريس عليه السلام - اللذّة الحقّ الدائمة الأبديّة، وهي لذّة الفناء في الله والبقاء معه، بل هي النفس المطمئنّة الخالدة الراجعة إلى ربّها راضية مرضيّة.

بمعنى أنّ ذاته لا تبقى كذات الإنسان العاديّ، والتي هي جزء من الإنسان العاديّ، بل إنّ ذات هذا الإنسان العظيم تذوب رويدًا رويدًا في ذات الله، بمعنى أنّ إفاضة العلم والنور تصبح جزءًا أساسيًّا من هذه الذات العظيمة، بمعنى أنّ العلم يتدفّق من جوانب هذا العظيم - شاء أم أبى.

ولتجسيد هذا المعنى نضرب مثالًا بشيءٍ ماديٍّ محسوس من عالم الحسّ وهو المصباح الكهربائيّ الذي خُلِقَ كي يُنير الفضاء الذي حوله، وهو راضٍ رضاه الكامل بإنارة الفضاء لاستفادة الناس. فالنور جزء أساسيّ من المصباح الكهربائي، يفيض على الناس نوره، شاء المصباح ذلك أم أبى.

فاهتمّي يا نفسُ ! بمعرفة ماهيّات الأشياء، ولا تهتمّي بمعرفة كيفيّاتها وكمّيّاتها، لأنّك تجدين الله في ماهيّاتها، وفي ماهيّاتها تقبع الحقيقة الكبرى.

فعلى سبيل المثال، إذا تيقّنتِ بأنّ الله في كلّ مكان، وأرجعتِ ماهيّات الأشياء إليه تعالى، فإنّ اهتمامكِ بمعرفة ماهيّة الشيء إنّما هو اهتمام بمعرفة الله عزّ وجل الذي هو جوهر كلّ شيء.

أمّا إذا اهتممتِ بمعرفة كمّيّات الأشياء وكيفيّاتها فإنّكِ ربّما راكمتِ وكدّستِ معلومات ذهنيّة كثيرة عن ذلك الشيء. ولكن هل تُغني هذه المعلومات عن معرفة جوهر ذلك الشيء ؟

كلّا فَعِلْمُ المركّب، الذي هو عِلْمُ الكمّيّات والكيفيّات، يؤدّي بكِ إلى معلوماتٍ جوفاءٍ واهيةٍ لا تسمن ولا تغني من جوع. بل يمكن لهذه المعلومات الجوفاء الواهية أن تخلق الزهو والعجب في الأشخاص، ومن ثمّ سقوطهم في هاوية الجهل وابتعادهم عن علم البسيط.

يقول نبيّ الله إدريس عليه السلام: إنّ علم البسيط أزليّ لا زمانيّ ولا مكانيّ، ولا وسيط بينه وبين النفس. في حين أنّ علم المركّب زائل ومرتبط بالزمان والمكان، ولا يمكن أن ينفصل معك مجرّدًا محمولًا في ذاتك عند مفارقتك الحسّ، بمعنى أنّ المعلومات الذهنيّة لا تصبح جزءًا من ذاتك المجرّدة، عندما تنفصل الروح عن البدن.

فنحن نتكلّم هنا عن ذاتك المجرّدة الخالدة التي تبقى بعد الموت خالدة، ولا نتكلّم عن جسدك الذي يفنى ويتحلّل بعد مفارقتك عالم الحس، بمعنى بعد موتك.

فاهتمّي يا نفسُ ! بعلم البسيط وذري علم المركّب.

استقلال الروح

وعن استقلال الروح عن البدن يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام من كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) في فصل (الروح له وجود مستقل) في سياق محاورته مع جابر بن حيّان كالتالي:-

قال جابر:- من هذه القرينة أتصوّر بأنّي لن أعرف ذاتي بعد الموت وفي العالم الآخر، ولن أتذكّر خاصيّاتي الحياتيّة في هذه الحياة الدنيا.

سأل الإمام عليه السلام:- أما جواب اعتراضك فهو ما يلي: هل حدث لك أن فقدت وعيك ؟

تريّث جابر قليلًا وقال: لم يحدث لي أن فقدت وعيي.

سأل الإمام عليه السلام:- هل ترى الأحلام في المنام ؟

قال جابر:- نعم أرى الأحلام كثيرًا.

سأل الإمام عليه السلام:- هل إنّك عند الرؤيا تنتقل من مكان إلى آخر ؟

قال جابر:- كثيرًا ما أنتقل من مكان إلى آخر.

سأل الإمام عليه السلام:- كيف تنتقل في حين أنّك تعلم بأنّك لا تمشي وقت المنام.

قال جابر:- أنا أنتقل بروحي.

سأل الإمام عليه السلام:- هل تعتقد بأنّ هذه الروح هي روحك أم روح شخص آخر ؟

قال جابر:- لا أشكّ في أنّها روحي.

سأل الإمام عليه السلام:- هل هذه الروح المتنقّلة تنفصل عنك أم لا ؟

أجاب جابر:- إنّها تنفصل عني، لأنّها إن لم تنفصل عني لم تقدر على الانتقال.

سأل الإمام عليه السلام:- روحك التي تنفصل عنك وتنتقل من مكان إلى مكان آخر هل تأكل الطعام ؟

قال جابر:- نعم.

سأل الإمام عليه السلام:- هل تشرب الماء ؟

أجاب جابر:- نعم.

سأل الإمام عليه السلام:- إن روحك التي تأكل وتشرب هل تفعل ذلك بفمك ؟

أجاب جابر:- لا ! لأنّ فمي لا تنتقل عند المنام.

سأل الإمام عليه السلام:- هل روحك لها فم للأكل والشرب ؟

أجاب جابر:- لا.

قال الإمام عليه السلام:- رغم أنّها لا تملك فمًا، إلا أنّك في المنام عند الرؤيا تلتذّ بأطائب الطعام، وتشرب الماء الزلال وتلتذّ به أيضًا.

فال جابر:- نعم.

قال الإمام عليه السلام:- روحك عند الرؤيا تمشي من دون أرجل، وتنتقل من مكان إلى آخر، وترى من دون عينين، وتسمع من دون أذنين، وتأكل الطعام وتشرب الشراب من دون فم، ولذا فإنّ روحك تملك حياة مستقلّة، وروحك عند الرؤيا لا تحتاج إلى جسمك لممارسة حياتها.

قال جابر:- إذا لم يكن هناك جسمي فأنا لا أقدر أن أرى الرؤيا في المنام.

قال الإمام عليه السلام: لا تستطيع أن ترى الرؤيا في المنام، ولكن روحك تقدر أن تبقى من دون جسمك. تذكّر بأنّي قلتُ لكَ إنّني أفترض بأنّكَ لستَ مسلمًا، وأنا أريد أن أقول لغير المسلم بأنّه ينقل (أنا) المتعلّقة به إلى عالم آخر.

لقد قلتَ إنّكَ من دون جسمك لا ترى الرؤيا في المنام، وأنا صدّقتك، ها إنّي أسألك: إنّ روحك في الرؤيا، والتي لها حياة مستقلّة، وتذهب حيث تشاء وتعمل ما تشاء، هل هي موجودة أم لا ؟

أجاب جابر:- نعم.

سأله الإمام عليه السلام:- هل تشكّ في وجود الروح وحياتها المستقلّة حين الرؤيا أم لا ؟

قال جابر: لا أشكّ في ذلك.

سأل الإمام عليه السلام:- هل تقرّ بأصل الحكمة القائلة بأنّ شيئًا إذا وُجِدَ لا يفنى ؟

قال جابر:- نعم أقرّ بهذا الأصل أيضًا.

قال الإمام عليه السلام:- فَروحك التي وُجِدَتْ، ولا تشكّ في وجودها، لا تفنى بعد موتك. ولما كان ما تعرفه (الأنا) هو روحك، لذا ستبقى أنت (الأنا) أيضًا، وستعرف نفسك بعد الموت.

قال جابر:- لا أشكّ في وجود روحي حين الرؤيا، لكنّ هذا الوجود تبعيّ لا انفراديّ ومستقلّ. لأنّه لولا جسمي لا أرى حُلمًا، ولو لم أرَ حُلمًا، فلا أشاهد روحي المجرّدة ذات الحياة المستقلّة.

سأل الإمام عليه السلام:- عندما تشرق عليك الشمس ويسقط ظلّك على الأرض، فهل ذلك الظلّ تبعيّ أم لا ؟

قال جابر:- هو تبعيّ.

فسأله الإمام عليه السلام:- لأيّ شيءٍ يتبع ؟

أجاب جابر:- يتبع شيئين: الأول ضوء الشمس، والثاني وجودي أنا. وبدونهما لا يوجد الظلّ.

قال الإمام عليه السلام:- وفقًا لأصل الحكمة، حتى ظلّك الذي يسقط على الأرض، ويزول في الظاهر بعد غروب الشمس، لن يزول، فضلًا عن روحك، ولو كانت ذات حياة تبعيّة.

العناصر الأربعة في الحضارات القديمة

ويواصل نبيّ الله إدريس عليه السلام في الفصل الأول:

يا نفسُ ! هذا جِرم الأرض هو أثقل الأشياء كلّها، وذلك لرسوبه تحت سائر الأشياء، وطفو سائر الأشياء كلّها عليه. ولذلك صار هذا الجرم في الغاية القصوى من الكثافة والجلافة والانحصار والكزازة وعدم النور والحياة.

ثمّ يتلو هذا الجرم من الأشياء جِرمُ الماء، وهو ألطف من الأرض وأصفى وأشرف وأنْوَر وأقرب إلى الحياة. ثمّ يتلو جِرمَ الماء جِرمُ الهواء، وهو ألطف من الماء. ثمّ جِرمُ النار الذي هو ألطف العناصر الأربعة وأشرفها وأشدُّها نورًا.

اعلمي يا نفسُ ! إنّ أوّل من خاطبكِ ودوّن ذلك في صحفه - حسب الصحف المدوّنة الموجودة - هو نبيّ الله إدريس عليه وعلى نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم. واعلمي إنّه مؤسّس الحضارات الإنسانيّة، وإنّ تعليماته العالية السامية الغير العاديّة أسّست لحضارات الأرض العريقة، من كلدانيّة إلى بابليّة إلى فارسيّة إلى آشوريّة إلى فينيقيّة إلى مصريّة إلى إغريقيّة إلى يونانيّة وأخيرًا وليس آخرًا الحضارة الرومانيّة، ومن ثمّ أدلى بدلوه في الحضارة الإسلاميّة والحضارة الغربيّة المعاصرة.

وهو أوّل من تكلّم عن العناصر، ولم يتكلّم عن العناصر أحد قبله، حسب الصحف المدوّنة. واعلمي يا نفسُ ! إنّ العلم والحضارات قابلة للتطوّر. فإذا استغربنا أنّ أرسطو Aristotle - وهو

الذي اقتبس أكثر علومه من هرمس الذي هو نبيّ الله إدريس عليه السلام - قد هيمن على الفكر البشريّ لمدة ألفين سنة، فما بالك بنبيّ الله إدريس عليه السلام الذي هيمن على الفكر البشري لمدّة آلاف السنين، ربّما تقرب من عشرة آلاف سنة !

عاش قبل الطوفان، ويذكر المؤرّخون أنّ ابنه متوشالح أو متوشلخ هو أبو لامك الذي هو أبو نبيّ الله نوح عليه السلام، فيكون إدريس عليه السلام جَدًّا لأبي نوح عليه السلام. وحسب كتابي (ورفعناه مكانًا عليًّا)، فإنّ إدريس عليه السلام هو بن يازد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليهم السلام. بمعنى أنّه السابع من أحفاد آدم أبي البشر عليه السلام.

وهو الذي اخترع فكرة العناصر وقال عليه السلام: العناصر سبعة: الأرض، والماء، والهواء، والنار، والقبّة الزرقاء بما فيها من أفلاك ونجوم وشمس وقمر، وجوهر النفس، والعقل.

وبقيت فكرة العناصر الأربعة: الأرض والماء والهواء والنار، لمدّة آلاف السنين في الحضارات الإنسانيّة العريقة، من كلدانيّة إلى بابليّة إلى فارسيّة إلى آشوريّة إلى فينيقيّة إلى مصريّة إلى إغريقيّة إلى يونانيّة وأخيرًا وليس آخرًا الحضارة الرومانيّة، ومن ثمّ أدلى بدلوه في الحضارة الإسلاميّة.

وأوّل من اعترض على العناصر الأربعة هو الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وهو آنذاك فتى عمره ١٢ سنة، وكان ذلك في المدينة المنوّرة في مدرسة أبيه الإمام محمّد الباقر عليه السلام، قبل ١٣٠٠ سنة.

فخاطب نبيّ الله إدريس عليه السلام نفسه قائلًا: يا نفسُ ! هذا جِرْمُ الأرض هو أثقل الأشياء كلّها، وذلك لرسوبه تحت سائر الأشياء، وطفو سائر الأشياء كلّها عليه. ولذلك صار هذا الجرم في الغاية القصوى من الكثافة والجلافة والانحصار والكزازة وعدم النور والحياة.

ثمّ يتلو هذا الجرم من الأشياء جرم الماء، وهو ألطف من الأرض وأصفى وأشرف وأنور وأقرب إلى الحياة. ثمّ يتلو جرم الماء جرم الهواء، وهو ألطف من الماء. ثمّ جرم النار الذي هو ألطف العناصر الأربعة وأشرفها وأشدّها نورًا.

العناصر الأربعة عند أرسطو

[1] كان أرسطو Aristotle يعتقد بأنّ هناك أربعة عناصر على الأرض وهي عبارة عن: التراب والماء والهواء والنار. واستمرّت هذه العقيدة راسخة في أذهان الناس طوال حوالي ألف عام، وكانت تُعتبر من أركان علم الأشياء، التي وضعها أرسطو Aristotle . ولم يوجد أحد في العالم لم يعتقد بالعناصر الأربعة، ولم يخطر على بال أحد أن يعترض على هذه العقيدة الراسخة في الناس، طوال ألف سنة مضت.

إلى أن ظهر طفل صغير في المدينة لا يتجاوز عمره ١٢ سنة، اسمه جعفر بن محمّد، والذي كان يدرس علم الأشياء عند أبيه الإمام محمّد الباقر عليهما السلام، حيث سمع عن العناصر الأربعة التي وضعها أرسطو Aristotle، فاستغرب من ذلك كثيرًا.

واعترض على عقيدة أرسطو Aristotle – التي عاشت في أذهان الناس طوال ألف سنة مضت، من دون أن يبدي أحد أيّ اعتراض عليها – قائلًا :-

> أستغرب من رجل في مقام أرسطو Aristotle ومنزلته الشامخة في العلم، كيف نسيَ أنَّ التراب ليس عنصرًا واحدًا، بل إنّه يحتوي على شتّى العناصر ! فكلّ فلزّ في التراب هو عنصر قائم بذاته.

إنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام كان أوّل رجل - أو بالأحرى أوّل طفل صغير لم يتجاوز ١٢ عامًا من عمره - يتحدّى العقيدة بالعناصر الأربعة ويزلزلها من أساسها، التي هيمنت على البشر هيمنة كاملة طوال آلاف السنين، ولا كان أحد يتصوّر بأنّها قابلة للتحدّي والتزلزل.

---

[1] من كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام).

وبعد وفاة والده تسلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام مسند التدريس، وبدأ يعلّم تلاميذه بأنّ الهواء الذي وصفه أرسطو Aristotle بالعنصر البسيط ليس في الحقيقة بسيطًا، وإنّما يتشكّل من عدّة عناصر. وإذا كان الناس قد رأوا بأمّ أعينهم فلزّات مختلفة على أرض الواقع، يمكنهم أن يصدّقوا بأنّ التراب ليس عنصرًا بسيطًا، بل يحتوي على عناصر شتّى، إلا أنّه من الصعب جدًّا أن يصدّقوا بأنّ الهواء ليس عنصرًا بسيطًا، بل هو يتشكّل من عناصر شتّى.

إنّ أبرز علماء الفيزياء في الغرب، بعد أرسطو Aristotle، كانوا يعتقدون بأنّ الهواء عنصر بسيط، وحتى في القرن الثامن عشر، الذي كان من القرون المتألّقة في الاكتشافات العلميّة، كان هناك كثير من العلماء يعتبرون الهواء عنصرًا بسيطًا، ولم يخطر على بالهم قط بأنّ الهواء يتشكّل من عناصر شتّى.

حتى جاء العالم الفرنسي لافوازييه Lavoisier [1] وعزل غاز الأوكسجين عن الهواء، وأوضح مدى تأثير غاز الأوكسجين على التنفّس والاحتراق. عندها قَبِلَ جمهور العلماء بأنّ الهواء ليس

---

[1] انطوان لوران لافوزييه Antoine-Laurent de Lavoisier (١٧٤٣-١٧٩٤) يوصف بأنّه أبو علم الكيمياء الحديث. أوّل من صاغ قانون حفظ المادة، وتعرّف على الأوكسجين وقام بتسميته في عام ١٧٧٨. فنّد نظريّة الفلوجستون Phlogiston ، وساعد في تشكيل نظام التسمية الكيميائي.
بدأ محاميًا ثم نال جائزة لابتكاره نظامًا جديدًا لإنارة الشوارع في باريس. وكان يقضي وقت الفراغ في الأبحاث الكيميائيّة، حيث يُعرف بأبي الكيمياء الحديثة.
تمّ إعدامه بعد قيام الثورة الفرنسيّة بتهمة ترطيب تبغ الجيش خلال عمله في لجنة المعايير المترية. ورغم أنّه لم يثبت عليه شيء إلا أنّه أُعْدِمَ. وما زالت العبارة التي قيلت له في قاعة المحكمة: (الجمهورية ليست بحاجة إلى علماء بل بحاجة إلى عدالة) وصمةً في تاريخ القضاء الفرنسي واستخفافًا مشينًا للعبقرية التي مثيلها نادر في التاريخ.
وهو مثل كثير من الناس قد درسوا علومًا أخرى غير التي برزوا فيها. فقد درس القانون، وحصل على شهادة علميّة فيه، ولكنّه لم يعمل بالقانون. التحق بالكثير من الوظائف المدنيّة، وكان بالغ النشاط في أكاديميّة العلوم الملكيّة. كما أنّه عمل في منطقة تحصيل الضرائب. ولذلك عندما قامت

الثورة الفرنسيّة، ارتابوا في أمره، وحاكموه ومعه ٢٧ عضوًا من هذه المنظّمة. ومحاكمات الثورة لا تكون دقيقة بقدر ما هي عاجلة.

وفي يوم ٨ مايو عام ١٧٩٤ حُوكموا جميعًا وأُدينوا، وتقرّر إعدامهم شنقًا، ولكنّ زوجة لافوازييه هي التي أنقذته. وكانت سيّدة بالغة الذكاء، وساعدته كثيرًا في أبحاثه. وعند محاكمة لافوازييه Lavoisier تقدّمت زوجته بطلب العفو عنه ورفض القاضي طلبها قائلًا: (إنّ الثورة لا تحتاج إلى عباقرة). ولكنّ زميلًا له كان أقرب للحقيقة عندما قال: (إنّ قطع رقبة لافوازييه Lavoisier لا يستغرق دقيقة واحدة، ولكنّ مائة سنة لا تكفي لتعوّضنا عن واحد مثله).

عندما ولد لافوزييه Lavoisier في باريس كان علم الفيزياء متخلّفًا كثيرًا عن علوم الكيمياء والرياضيات والفلك. وعلى الرغم من أنّ كثيرًا من الحقائق الكيميائيّة قد اهتدى إليها العلماء، فإنّ أحدًا منهم لم يفلح في أن يصوغ هذه الحقائق في نظريّة شاملة. وكان يعتقد في هذا الوقت خطأ أنّ الهواء عنصر. كما لم يفهم أحد مكوّنات النار. بل إنّ الفكرة الشائعة في ذلك الوقت كانت خاطئة جدًّا. كان يعتقد أيضًا أنّ كلّ المواد القابلة للاحتراق تتكوّن من مادة سمّيت الفلوجيستون Phlogiston، وأنّ هذه المادة تنطلق أثناء الاحتراق.

وفي الفترة ما بين ١٧٥٤ ميلادي و ١٧٧٤ ميلادي أفلح عدد من الكيميائيين النابهين مثل جوزيف بلاك Joseph Black وجوزيف بريستلي Joseph Priestley وهنري كافنديش Henry Cavendish وغيرهم في فصل غازات هامة: كالأوكسجين والهيدروجين وثاني أكسيد الكربون. ولما كان هؤلاء العلماء قد سلّموا بوجود مادة الفلوجيستون Phlogiston فإنّهم لم يدركوا معنى المواد الكيماويّة التي اكتشفوها. فكانوا يشيرون مثلًا إلى الأوكسجين على أنّه الغاز الذي تجرّد من الفلوجيستون Phlogiston، ولم يفهم أحد في ذلك الوقت لماذا يزداد احتراق عود من الخشب في غاز الأوكسجين أكثر من احتراقه في الغاز العادي.

كانت تجارب لافوازييه من النوع الكمّي بالدرجة الأولى. قام بتعيين تركيب حامضيّ (النيتريك والكبريتيك) وكان أول من أنتج (الغاز المائي) واخترع المغياز (وهو جهاز لقياس كميات الغازات يستعمل عادة في المختبرات).

أدخل لافوازييه Lavoisier مصطلحات وأسماء كيميائيّة جديدة قبلها غيره من الكيميائين، وحلّت محلّ النظام القديم. استطاع لافوازييه Lavoisier وحده أن يضمّ فتافيت الحقائق الكيميائيّة التي اكتشفت، ويصنع منها إطارًا متكاملًا. وأوّل ما فعله هو إنكار ما سمّاه العلماء بالفلوجيستون

Phlogiston، كما أنّه الوحيد الذي أكّد أنّ الاحتراق معناه الإتحاد الكيميائي بين الأوكسجين والمادة المشتعلة.

كما أنّ الماء ليس عنصرًا ولكنّه اتّحاد كيميائي بين الأوكسجين والهيدروجين. وكما أنّ الهواء ليس عنصرًا وإنّما هو أيضًا مركّب من غازين هما الأوكسجين والهيدروجين.

وهذه الحقائق تبدو واضحة ومسلّمة تمامًا هذه الأيام، ولم تكن واضحة مسلّمة تمامًا في عهد لافوازييه Lavoisier ولا الذين سبقوه. بل إنّ عددًا من علماء عصره كالعادة لم يصدّقوا ما أتى به لافوازييه Lavoisier بعد أن كشف لهم هذه الحقائق الجديدة.

ولكن بعد أن أصدر لافوازييه Lavoisier كتابه الشهير (مبادئ الكيمياء) في سنة ١٧٨٩ ميلادي أخذ الجيل الجديد من العلماء يقتنع بوجهة نظره. وبعد أن كشف لافوازييه Lavoisier أنّ الماء والهواء ليسا من العناصر، فإنّه قد كتب قائمة بهذه العناصر الجديدة. وهذه القائمة تضمّنت بعض الأسماء الحديثة لكلّ العناصر المعروفة، التي أضيفت إلى العناصر التي اهتدى إليها لافوازييه Lavoisier .

ثمّ إنّه كان أوّل من اتّخذ للعناصر وللمعادلات الكيميائيّة رموزًا. وبمقتضى هذه الرموز أصبحت الكيمياء عالميّة، ويمكن فهمها في كلّ لغة.

لافوازييه Lavoisier هو العالم المسؤول عن جعل الكيمياء علمًا دقيقًا، وذلك بإجراء تجارب شديدة الدقّة والوضوح على التفاعلات الكيميائيّة.

ساهم أيضًا بصورة متواضعة في دراسة علم الجيولوجيا، وكذلك في علم وظائف الأعضاء. وهو الذي أثبت أنّ **عمليّة التنفّس هي عملية الاحتراق أيضًا. وبناء على ذلك فإنّ الكائنات الحيّة كالحيوان والإنسان تستمدّ طاقتها من عمليّة احتراق بطيئة للمواد العضويّة، مستخدمة في ذلك الأوكسجين الموجود في الهواء الذي نستنشقه.**

ولهذه الدقّة والوضوح والقدرة الهائلة على التنظير استحقّ لافوازييه Lavoisier أن يوصف بأنّه أبو علم الكيمياء الحديث.

وكانت القوانين التي صاغها لافوازييه Lavoisier هي كالتالي:-

١- قانون بقاء الكتلة: وينصّ على أنّ وزن مادتين كيميائيتين منفصلتين توازي وزن المادة الجديدة الناتجة من اتّحادهما.

٢- ينصّ قانون حفظ المادة على أنّ المادة لا تفنى ولا تُستحدث بل تتغيّر من شكل إلى شكل آخر.

عنصرًا بسيطًا، إنّما هو يتشكّل من غازات شتّى. كان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر بعدما اكتشف الأوكسجين في عام ١٧٧٨ ميلادي.

وقبله بإثني عشر عامًا اكتشف كافيندش Cavendish الإنكليزي غاز الهيدروجين، ولكن ليس كعنصر من الهواء وإنّما كعنصر من الماء، ووضع لافوازييه Lavoisier الفرنسي اسم (الهيدروجين) عليه فيما بعد.

ففي ٢٧ مايو من سنة ١٧٦٦ ميلادي عرض العالم الإنكليزي هنري كافيندش Henry Cavendish الهيدروجين، الذي كان ممتلئًا في إناء، إلى شعلة نار. فاشتعل الإناء فجأة وانفجر، وانتشرت النار حوله، حتى أنّ يديه وجزء من وجهه احترقت. ولو لم يجرِ أهل بيته إلى مكان الحريق - على إثر صراخ هنري كافيندش Henry Cavendish - لإنقاذه ولإطفاء نار الحريق، لاحترق البيت وأثاث البيت، ولربما هو نفسه تعرّض للموت.

وقد سمّى هنري كافيندش Henry Cavendish هذا الغاز بـ (الهواء القابل للاشتعال) لسببين:-

أولًا: لأنه بسبب هذه التجربة المرّة فقد تبين له أنّ هذا الغاز يشتعل.

وثانيًا: كان القدماء يتصوّرون بأنّ الماء هو عبارة عن الهواء المائع. لأنّهم كانوا يرون بأنّ الماء يتحوّل إلى بخار عندما يتعرّض للحرارة، ثم يصعد إلى الفضاء، ومن ثم ينزل إلى الأرض بشكل ماء. ولذلك كانوا يتصوّرون بأنّ الماء ما هو إلا هواء مائع. ولذلك سمّى هنري كافيندش Henry Cavendish غاز الهيدروجين بـ (الهواء القابل للاشتعال).

كان الهيدروجين معروفًا بهذا الإسم في البلدان الأوربيّة، إلى أنّ وضع العالم الفرنسي أنطوان لافوازييه Antoine Lavoisier اسم (الهيدروجين) عليه، فعرفت أوربا هذا الغاز بالهيدروجين.

والغريب المدهش أنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام قد سبقهم بـ ١١٠٠ سنة، وأعلن أنّ الهواء ليس عنصرًا بسيطًا، إنّما هو يتشكّل من عناصر شتّى !!!

وفي أحد أيام عام ١٧٩٤ قطعوا رأس لافوزيه Lavoisier بالمقصلة. ولو عاش أبو الكيمياء الحديث لربّما توصّل إلى اكتشافات جديدة.

بقيت تعليمات أرسطو Aristotle راسخة في أذهان الناس، مهيمنة على العلوم، حتى عصر كوبرنيك Kopernik وكبلر Kepler وغاليليو Galileo ، في القرون ١٥ و ١٦ و١٧. وحتى الكنيسة في الغرب ارتبطت بتعليمات أرسطو Aristotle منذ حوالي عام ١١٠٠ ميلادي، بعد تعديلات بسيطة، كي تتلائم مع تعليمات الأناجيل والعهدين القديم والجديد.

وفي عهد الإمام الباقر عليه السلام كان علم فيزياء أرسطو Aristotle يدرّس في محضره. بيد أنّ علم فيزياء أرسطو Aristotle كان يتضمّن علومًا شتّى، من بينها علوم الحيوان والنبات والجيولوجيا والميكانيكا وغيرها، وكانت تدرّس تحت عنوان الفيزياء أو علم الأشياء.

ويحتمل أنّ فيزياء أرسطو Aristotle ، وأيضًا علوم الجغرافيا والفلك والهندسة، قد وصلت إلى المدينة المنوّرة عن طريق أقباط مصر، الذين كان أجدادهم قد تعلّموا من مدرسة الإسكندريّة الشهيرة، وعلّموا تلاميذهم ومريديهم هذه العلوم، ونقلوا النظريّات العلميّة، وعلى الخصوص فلسفة الأفلاطونيين الجدد، من جدّ إلى أب، جيلًا بعد جيل. ويُحتمل أنّ كتبًا استنسخت من كتب مكتبة الإسكندريّة قد وصلت إلى الإمام الباقر والصادق عليهما السلام.

تعلّم الإمام الصادق من والده الإمام الباقر عليهما السلام علوم الفيزياء والفلك والجغرافيا المتعلّقة بمدرسة أرسطو Aristotle. إلّا أنّه اعترض على أرسطو Aristotle في بعض أجزاء علوم الفيزياء، كما اعترض عليه في نظرية دوران الشمس حول الأرض في علوم الجغرافيا والفلك، في حين أنّه كان طفلًا صغيرًا لم يتجاوز ١٢ عامًا من عمره.

عناصر الأرض والكون

ولتسليط الضوء على ما قاله الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن أنّ كلّ ما هو في التراب موجود في بدن الإنسان، ولكن ليس بكمّيات متساوية، أو ما قاله بالتحديد من أن:

أربعة أشياء – من الأشياء الموجودة في التراب - كثيرة في بدن الإنسان،

وثمانية أشياء قليلة في بدن الإنسان،

وثمانية أشياء أخرى قليلة جدًّا في بدن الإنسان.

فإنّنا نقول: إنّ الإمام عليه السلام كان يعني بالأشياء الموجودة في التراب ما نعرفه اليوم بـ (العناصر). ولذلك وجب علينا أن نعطي توضيحات عن هذه العناصر، التي لم تكن معروفة في زمن الإمام عليه السلام.

العنصر الكيميائي هو عبارة عن مادة كيمائيّة خالصة متكوّنة من ذرّة وحيدة فريدة في نوعها، يميّزها العدد الذرّي، وهو عدد بروتونات نواة الذرة. وتندرج كلّ العناصر تحت تصنيف:

فلزّ أو شبه فلزّ أو لا فلزّ.

وتُنظّم العناصر في الجدول الدوري.

العنصر هو لبّ المادة، ومنذ آلاف السنين والعلماء في بحث جادّ كي يكتشفوا العناصر الكيميائيّة. وأُطلق على كلّ عنصر اسم ورمز يُعرف به، ويتميّز بخاصيّة خاصّة به. وتمّ اكتشاف معظم العناصر, والتي هي اليوم ١١٨ عنصرًا، وكان عددها ١٠٢ عنصر فقط في عام ١٩٧٣ ميلادي.

ومن العناصر يتكوّن كلّ ما في الوجود، من نجوم ومجرّات وكواكب وأرض وجبال وجماد ونبات وحيوان وإنسان. ومن العناصر ما هو مستقرّ ثابت لا يتغيّر، ومنها ما هو غير مستقرّ، بل يتحوّل من عنصر إلى آخر، بسبب نشاطه الإشعاعيّ.

أمثلة من العناصر: الهيدروجين Hydrogen – الهيليوم Helium – الكربون Carbon – الأوكسجين Oxygen – النيتروجين Nitrogen – الفوسفور Phosphorus – الكلور Chlorine – اليورانيوم Uranium وغيرها. وهي اليوم حوالي ١١٨ عنصر. ونقول (حوالي ١١٨ عنصر) لأنّ الفيزيائيين يصنعون الجديد منها، بين الحين والآخر، بواسطة معجّلات (مسرّعات) الجسيمات.

وحسب نظريّة (الانفجار العظيم)، فقد بدأ الكون بـ غازي الهيدروجين والهيليوم ، حيث تراكمت تلك الغازات في تجمّعات كثيرة، فشكّلت نجومًا وتجمّعات نجوم بشكل مجرّات. وكانت درجة حرارة النجوم في البداية مرتفعة جدًا - منذ نحو ١٣ مليار سنة - حيث كانت تجري في باطنها تفاعلات نوويّة واندماجات نوويّة.

يؤدّي الاندماج النووي إلى التحام نوويّات عنصري الهيدروجين Hydrogen والهيليوم Helium الخفيفين، فتتكوّن منهما عناصر أخرى كتلتها أكبر. فبينما تبلغ كتلة الهيدروجين Hydrogen (وحدة ذريّة واحدة)، وكتلة الهيليوم Helium (٤ وحدات ذريّة)، تنشأ العناصر الأخرى منها، بتلاحماتها المتتالية، في النجوم والشمس. فيتكوّن الكربون Carbon (١٢ وحدة ذريّة) والأوكسجين Oxygen (١٦ وحدة ذريّة) والصوديوم Sodium (٢٣ وحدة ذرية) ، وهكذا حتى اليورانيوم Uranium (٢٣٨ وحدة ذرية).

لا توجد في الطبيعة عناصر أثقل من اليورانيوم Uranium (عدده الذري ٩٢ وكتلته الذريّة ٢٣٨ وحدة ذريّة). وبسبب أنّ اليورانيوم Uranium غير مستقرّ، فهو يتحلّل بالإشعاع، وينشأ منه بعد ذلك الرصاص Lead، وهو عنصر ثابت مستقرّ لا ينقسم ولا يشعّ. علمًا بأنّ العدد الذرّي يعادل عدد البروتونات في النواة، والكتلة النوويّة تعادل عدد البروتونات والنيوترونات فيها.

إلا أنّ الفيزيائيين استطاعوا أن يركّبوا عناصر أثقل من اليورانيوم Uranium، بواسطة تسليط النيوترونات عليها حيث تمتصّها، وتتكوّن منها عناصر أثقل من ٢٣٨ وحدة ذريّة، مثل البلوتونيوم Plutonium والأمريكيوم Americium والآينشتاينيوم Einsteinium، لكنّها لا تبقى على حالها، بل سرعان ما تتحلّل إلى عناصر أخفّ منها، والتي هي ثابتة ومستقرّة.

وفيما يلي تاريخ ملخّص عن الاكتشافات بشأن العناصر منذ عام ١٦٦١:-

- روبرت بويل Robert Boyle اكتشف في ١٦٦١ أنّ هناك أكثر من مجرّد أربعة عناصر.

- أنطوان لافوازييه Antoine Lavoisier في ١٧٨٩ اخترع تسمية (عناصر الكيمياء)، وكانت هناك في ذلك الوقت ٣٣ عنصرًا فقط.

- وفي عام ١٨١٨ عرّف يونس ياكوب برتسيليوس Jons Jacob Berzelius الأوزان الذرية لـ ٤٥ عنصرًا.

- وعرف ديمتري مندليف Dmitri Mendeleev، مع مطلع القرن العشرين، بأنّ العنصر هو مادة نقيّة لا يمكن لها أن تتحلّل في أيّ مادة. أو بعبارة أخرى، أنّ العنصر لا يتحوّل إلى عنصر آخر بواسطة تفاعلات كيميائيّة. علمًا بأنّه يمكن تحوّل عنصر إلى عنصر آخر بالتفاعل النوويّ فقط، وهي تفاعلات فيزيائيّة وليست كيميائيّة.

- وفي عام ١٩١٣ أعلن هنري موزلي Henry Moseley أنّ الأساس في تعريف العنصر المادي هو العدد الذرّيّ لكلّ عنصر، عندما أصبح متفهّمًا بأنّ الوزن الذري هو مجموع كتل البروتونات والنيوترونات المتمركزة في نواة الذرة. وأدّت تلك المعلومات في النهاية إلى التعريف الحالي للعنصر.

واستنادًا إلى العدد الذري (عدد البروتونات في نواة الذرة)، استُخدمت الأرقام الذريّة، بدلًا من الأوزان الذريّة، للتمييز بين العناصر.

- حاليًا تعرف منظمة يوباك IUPAC العنصر إذا بقي لنظير مشعّ مدّة أطول من ١٠-١٤ ثانية، بحيث تستطيع خلالها النواة تشكيل سحابة الكترونيّة.

- قبل عام ١٩١٤ كانت العناصر المعروفة هي ٧٢ فقط.

- اكتشف العنصر ١٠١ وسمّي منديليفيوم Mendelevium تكريمًا للكيميائي منديليف Mendeleev، وهو أوّل من قام بترتيب العناصر بطريقة دوريّة في الجدول الدوريّ بحسب خواصّها الكيميائية.

- في أكتوبر ٢٠٠٦ أعلن التقرير التوليفي العنصر ١١٨ (عدد البروتونات في النواة).

- في إبريل ٢٠١٠ أعلن التقرير التوليفي العنصر ١١٧ (عدد البروتونات في النواة).

علمًا بأنّ العدد الذري (عدد البروتونات) يحدّد نوع العنصر، في حين أنّ (مجموع البروتونات والنيوترونات) يحدّد الكتلة الذريّة. إنّ عدد النيوترونات يساوي في العادة عدد البروتونات في النواة الذريّة، ولكن في العناصر الثقيلة يزداد عدد النيوترونات عن عدد البروتونات.

- قبل القرن الماضي، وفي مختلف الثقافات والعصور القديمة، كانت هناك عشرة مواد مألوفة من العناصر الكيميائيّة وهي: الكربون Carbon – النحاس Copper – الذهب Gold – الحديد Iron – الرصاص Lead – الزئبق Mercury – الفضة Silver – الكبريت Sulfur – القصدير Tin – الزنك Zinc.

- وعرفت ٣ مواد إضافيّة أيضًا كعناصر وهي: الزرنيخ Arsenic – الأنتيمون Antimony – البزموت Bismuth.

- وعرفت معظم ما تبقّى من العناصر الموجودة في الطبيعة قبل عام ١٩٠٠.

- ثمّ عرفت معظم العناصر النادرة مثل: سيريوم Cerium – لانثانوم Lanthanum – غادولينيوم Gadolinium – نيوديميوم Neodymium.

- ثمّ اكتشف العنصر المشعّ البولونيوم Polonium (العدد الذري ٨٤) واليورانيوم Uranium (العدد الذري ٩٢).

- ثمّ اكتشف العنصر كوبيرنيسيوم Copernicium (رقم ١١٢) في عام ٢٠٠٩.

- ثمّ العنصر الأثقل حتى الآن، الذي يعتقد بأنّه قد تمّ تركيبه، وهو العنصر ١١٨ أنون أوكتيوم Ununoctium في عام ٢٠٠٦، في مختبرات فليروف للتفاعلات النوويّة في دوبنا في روسيا.

- ثمّ العنصر رقم ١١٧، أنون سيبتيوم Ununseptium الذي اكتشف في عام ٢٠٠٩، وقامت منظمة يوباك IUPAC بالاعتراف رسميّاً بالعنصر رقم ١١٤، أنون كواديوم (الآن يسمّى فليروفيوم Flerovium)، وبالعنصر رقم ١١٦، أنون هيكسيوم (الآن يسمّى ليفرموريوم Livermorium) وذلك في يونيو من عام ٢٠١١.

إن الجدول الدوري الذي نراه اليوم لا يختلف كثيرًا عن الجدول الدوري الذي قام ببنائه ديمتري مندليف Dmitri Mendeleev في عام ١٨٦٩ ميلادي، والذي كان يحتوي آنذاك على ٦٣ عنصرًا فقط، دون أن يعلم شيئًا عن مبنى الذرة وما تحويه من جسيمات. فقد لخّص في ذلك الجدول المعلومات المتوفّرة آنذاك عن الخصائص الكيميائيّة للعناصر، مثل التكافؤ والعناصر النبيلة.

وقد كان منديليف Mendeleev يمارس لعبة الورق السوليتير solitaire في سفراته الطويلة، ممّا أوحى له أن يكرّس لكلّ عنصر بطاقة تحوي اسمه وصفاته. وبذلك فقد جمع ٦٣ بطاقة بعدد العناصر المعروفة في ذلك الوقت، وحاول ترتيبها بشتّى الطرق، إلا أنّه لم ينجح في ذلك سوى في شهر فبراير من عام ١٨٦٩، حيث رتّب العناصر حسب أوزانها الذريّة، بحيث كوّن جدولًا من أعمدة وأسطر. في الأعمدة تتواجد العناصر ذات الصفات المتشابهة، من وجهة نظر التكافؤ، وتشكّل ما يدعى بالعائلات. أمّا في الأسطر فالعناصر مرتّبة بحيث تتدرّج أوزانها تدريجيًّا.

كيف نجح منديليف Mendeleev الروسي في مهمّته في حين فشل الآخرون ؟ ولماذا ارتبط الجدول الدوري باسمه وليس باسم لوثر ماير Lothar Meyer الألماني، الذي نشر جدولًا مشابهًا في نفس الفترة ؟

إنّ السبب في ذلك يعود أساسًا إلى نجاح منديليف Mendeleev في التنبّؤ بوجود عناصر لم تكن معروفة آنذاك. لذا فقد أبقى عددًا من الخانات فارغة في جدوله مع تحديد صفاتها. أُولى توقّعاته تحقّقت حينما تمّ اكتشاف الغاليوم Gallium في عام ١٨٧٥.

الخطأ الوحيد الذي وقع فيه منديليف Mendeleev هو ترتيب العناصر حسب أوزانها الذريّة (الكتلة الذريّة) وليس حسب أعدادها الذريّة (عدد البروتونات). ولحسن حظّه فإنّه في معظم الحالات تزيد الأوزان الذريّة بزيادة الأعداد الذريّة.

تتّحد العناصر مع بعضها البعض، وتتكوّن منها مركّبات. فمثلًا يتكوّن ثاني أكسيد الكربون CO_2 من عنصري الكربون والأكسجين، بنسبة ذرّة واحدة من الكربون مع ذرتين من الأوكسجين. كما يتكوّن جزيئ ملح الطعام $NaCl$ من ذرة من عنصر الصوديوم مع ذرة من عنصر الكلور.

كما يمكن لذرّات العناصر الاتّحاد مع بعضها البعض. ويوجد ذلك على الأخصّ في الغازات، حيث يتكوّن جزيء الهيدروجين H_2 من ذرّتي الهيدروجين، وجزيئ الأوكسجين O_2 من

ذرّتي الأوكسجين، وجزيئ النيتروجين N_2 من ذرّتي النيتروجين. كما يمكن لذرّات الفلزّات والمعادن الاتّحاد مع بعضها البعض، كما نجده في الحديد النقيّ والفضّة النقيّة أو سبيكة الذهب والفضّة.

أمّا الغازات النبيلة مثل الهيليوم Helium والنيون Neon والكريبتون Krypton، فلا تتّحد مع عناصر أخرى، كما أنّها لا تتّحد مع نفسها، فهي توجد كذرّات منفردة حرّة طليقة.

عدد العناصر اليوم

واعلمي يا نفسُ ! هكذا يتطوّر العلم ! فالمعادن التي ذكرها لكِ نبيّ الله إدريس عليه السلام قبل حوالي عشرة آلاف سنة وقال عليه السلام: إنّها أربعة، بقيت كذلك كلّ هذا الوقت الطويل الطويل الطويل، حتى أنّ أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle وباقي فلاسفة الإغريق قبلوها على ما هي عليه، وبقيت كذلك حتى عام ١٦٦١ ميلادي، يعني حوالي ألفين سنة بعد أرسطو Aristotle، حيث كانت العناصر أربعة فقط، كما قال نبيّ الله إدريس عليه السلام قبل حوالي عشرة آلاف سنة.

في عام ١٦٦١ ميلادي اكتشف روبرت بويل Robert Boyle أنّ هناك أكثر من مجرّد أربعة عناصر.

وبعد أكثر من ١٢٠ سنة يعني في عام ١٧٨٩ ميلادي اخترع أنطوان لافوازييه Antoine Lavoisier تسمية (عناصر الكيمياء)، وكانت هناك في ذلك الوقت ٣٣ عنصرًا فقط.

وفي عام ١٨١٨ ميلادي عرّف يونس ياكوب برتسيليوس Jons Jacob Berzelius الأوزان الذريّة لـ ٤٥ عنصرًا.

وفي عام ١٨٦٩ ميلادي كانت عدد العناصر ٦٣. فقد كان ديمتري مندليف Dmitri Mendeleev يمارس لعبة الورق السوليتير solitaire في سفراته الطويلة، مما أوحى له أن يكرّس لكلّ عنصر بطاقة تحوي اسمه وصفاته. وبذلك فقد جمع ٦٣ بطاقة بعدد العناصر المعروفة في ذلك الوقت، وحاول ترتيبها بشتّى الطرق، إلا أنّه لم ينجح في ذلك سوى في شهر فبراير من عام ١٨٦٩، حيث رتّب العناصر حسب أوزانها الذريّة، بحيث كوّن جدولًا من أعمدة وأسطر. في الأعمدة تتواجد العناصر ذات الصفات المتشابهة، من وجهة نظر التكافؤ، وتشكّل ما يدعى بالعائلات. أمّا في الأسطر فالعناصر مرتّبة بحيث تتدرّج أوزانها تدريجيًّا.

في عام ١٨٧٥ تم اكتشاف الغاليوم Gallium ووصل عدد العناصر إلى ٦٤ عنصر.

وعرف ديمتري مندليف Dmitri Mendeleev، مع مطلع القرن العشرين، بأنّ العنصر هو مادة نقيّة لا يمكن لها أن تتحلّل في أي مادة. أو بعبارة أخرى، أنّ العنصر لا يتحوّل إلى عنصر آخر بواسطة تفاعلات كيميائيّة. علمًا بأنّه يمكن تحوّل عنصر إلى عنصر آخر بالتفاعل النووي فقط، وهي تفاعلات فيزيائيّة وليست كيميائيّة.

وفي عام ١٩١٣ أعلن هنري موزلي Henry Moseley أنّ الأساس في تعريف العنصر المادي هو العدد الذري لكلّ عنصر، عندما أصبح متفهّمًا بأنّ الوزن الذري هو مجموع كتل البروتونات والنيوترونات المتمركزة في نواة الذرة. وأدّت تلك المعلومات في النهاية إلى التعريف الحالي للعنصر.

واستنادًا إلى العدد الذري (عدد البروتونات في نواة الذرة)، استخدمت الأرقام الذريّة، بدلًا من الأوزان الذريّة، للتمييز بين العناصر.

حالياً تعرف منظمة أيوبك IUPAC العنصر إذا بقي لنظير مشعّ مدّة أطول من ١٠-١٤ ثانية، بحيث تستطيع خلالها النواة تشكيل سحابة الكترونيّة.

قبل عام ١٩١٤ كانت العناصر المعروفة هي ٧٢ فقط.

اكتشف العنصر ١٠١ وسمّي مندليفيوم Mendelevium تكريمًا للكيميائي مندليف Mendeleev، وهو أوّل من قام بترتيب العناصر بطريقة دوريّة في الجدول الدوري بحسب خواصّها الكيميائيّة.

وتمّ اكتشاف معظم العناصر، والتي هي اليوم ١١٨ عنصرًا، وكان عددها ١٠٢ عنصر فقط في عام ١٩٧٣.

ثمّ اكتشف العنصر كوبرنيسيوم Copernicium (رقم ١١٢) في عام ٢٠٠٩.

والعناصر التالية رقم ١١٤ ورقم ١١٦ في يونيو من عام ٢٠١١.

ثمّ العنصر رقم ١١٧ الذي اكتشف في عام ٢٠٠٩ ، وقامت منظمة يوباك IUPAC بالاعتراف رسميًّا بالعنصر أونون كواديوم (الآن يسمّى فليروفيوم Flerovium) وعنصر أونون هيكسيوم (الآن يسمّى ليفرموريوم Livermorium)، وفي إبريل ٢٠١٠ أعلن التقرير التوليفي العنصر ١١٧ (عدد البروتونات في النواة).

في أكتوبر ٢٠٠٦ أعلن التقرير التوليفي العنصر ١١٨ (عدد البروتونات في النواة)، وهو العنصر الأثقل حتى الآن، الذي يعتقد بأنّه قد تمّ تركيبه، وهو العنصر ١١٨ أنون أوكتيوم Ununoctium في عام ٢٠٠٦ ، في مختبرات فليروف للتفاعلات النووية في دوبنا في روسيا.

فكما ترينّ يا نفسُ ! إنّ فكرة العناصر الأربعة التي قال بها نبيّ الله إدريس عليه السلام قبل حوالي عشرة آلاف سنة بقيت على حالها إلى عام ١٦٦١ ميلادي، يعني إلى ما قبل ٣٥٠ سنة فقط. وإنّ العناصر التي كانت أربعة عناصر فقط إلى عام ١٦٦١ ميلادي، كما قالها نبيّ الله إدريس عليه السلام قبل حوالي عشرة آلاف سنة، ارتفع إلى ١١٨ عنصر إلى عام ٢٠١١ ميلادي، أي خلال ٣٥٠ سنة فقط.

علم الفلك والنجوم

ويواصل نبيّ الله إدريس عليه السلام في الفصل الأول:

ثمّ يتلو جِرمَ النار جِرمُ الفلك الذي هو صفو ما تحته، والمخصوص بالشرف على سائر الأجرام للطافته وإشفافه وشدّة أنواره وحسن نظامه وترتيبه وقربه من الحياة ومجاورته الأشياء الشريفة الحيّة العاقلة، وأنّه متشكّل بسيّد الأشكال وأتمّها وأصحّها الذي هو الشكل الكرى (الكرويّ) المدوّر، وأنّ سائر ما يحتوي عليه متشكّل بشكله، كرةً دون كرة ، على الترتيب الذي ينتهي إلى كرة الأرض.

يُقال إنّ نبيّ الله إدريس عليه السلام هو أوّل من اخترع علم النجوم. ويُقال أيضًا هو درس علم النجوم عند نبيّ الفرس زرادشت. وأكّد على أنّ القبّة الزرقاء بما فيها من أفلاك ومجرّات وثقوب سوداء ونجوم وشمس وقمر إنّما هي جرم الفلك، كما سمّاها، واعتبرها العنصر الخامس.

يا نفسُ ! لقد بدأ الإنسان حضارته بالعناصر الأربعة. والحضارات تتعرّض للتطوّر حسب تطوّر العلوم، وفكرة العناصر الأربعة بقيت لآلاف السنين. ولكن إلى ٣٥٠ سنة خلت، يعني في عام ١٦٦١ ميلادي، بدأ مفهوم العناصر الأربعة يتغيّر، كما ذكرتُ في الفصل السابق، وبدأ العلم يتقدّم على وتيرة سريعة، حتى وصلت العناصر اليوم إلى ١١٨ عنصرًا.

ولكن يا نفسُ ! لا تنسي أنّ هيئة الموجودات ونظامها وترتيبها التي ذكرها نبيّ الله إدريس عليه السلام، قبل الطوفان، وفي الماضي السحيق، كان حقًّا حجر الأساس للحضارات الإنسانيّة، والتي

استوحت منها الحضارات العريقة من كلدانيّة إلى بابليّة إلى فارسيّة إلى آشوريّة إلى فينيقيّة إلى مصريّة إلى إغريقيّة إلى يونانيّة، وأخيرًا وليس آخرًا الحضارة الرومانيّة، ومن ثمّ الحضارة الإسلاميّة والحضارة الغربيّة.

فهي كلّها يا نفسُ ! استوحت نمط حضاراتها من هرمس، الذي هو نبيّ الله إدريس عليه السلام، وكلّ هذه الحضارات، وعلى الأخصّ الحضارة الإغريقيّة والحضارة الإسلاميّة أسّست للحضارة الغربيّة الراهنة.

ولكنّ الثورة العلميّة التي أحدثها الإمام جعفر الصادق عليه السلام في المدينة المنوّرة سبقت الحضارة الغربيّة بأكثر من ١٢٠٠ عام.

ومن هيئة الموجودات ونظامها وترتيبها التي ذكرها نبيّ الله إدريس عليه السلام، كان جرم الفلك، ولقد تطوّر هذا العلم تطوّرًا هائلًا تحت اسم علم النجوم أو علم الفلك، وتغيّر تغيّرًا كبيرًا على مرّ السنين والأعوام.

وسترين يا نفسُ ! لاحقًا في الفصول التالية التطوّرات الهائلة التي حدثت في علوم الفلك والنجوم، والتي ذخرتها لكِ في كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام).

لكنّ الملفت للأنظار، أنّكِ سوف ترين بأمّ أعينك صدق ما قاله نبيّ الله إدريس عليه السلام من شرف هذا الجرم على سائر الأجرام، للطافته وإشفافه وشدّة أنواره، وحسن نظامه وترتيبه، وقربه من الحياة، ومجاورته الأشياء الشريفة الحيّة العاقلة، وأنّه متشكّل بسيّد الأشكال وأتمّها وأصحّها

الذي هو الشكل الكرويّ[1] المدوّر، وأنّ سائر ما يحتوي عليه متشكّل بشكله، كرة دون كرة، على الترتيب الذي ينتهي إلى كرة الأرض.

وإنّي أذكر الفصول القادمة من كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) كي تستنيري يا نفسُ ! ولا يبقى لكِ أيّ مجال للشكّ والريبة، وتتيقّني وتعتقدي بما أقول، حتى تجدي النظام الرائع الذي يهيمن على القبّة الزرقاء، والأحجام العظيمة جدًّا للأجسام الإهليجيّة البيضاويّة التي تسبح في الأفلاك، في مدارات إهليجيّة بيضاويّة، وأيضًا كرات مغناطيسيّة عملاقة عظيمة جدًّا، ما نسمّيها السوائل الأثيريّة، التي خُلِقَتْ جلّها على شكل قطرة ماء، مثل الكرات المغناطيسيّة للأرض والمشتري، والتي يصل قطرها إلى ملايين الكيلومترات، لكن رغم ذلك تخضع لنفس القوانين التي تحكم أصغر شيء في الطبيعة أو السوائل المجهريّة المتناهية في الصغر وهو الذّرّة، ودوران الالكترونات حول النواة في هذه الذرة، التي لا تكاد تبين، حتى تحت المجاهر القويّة.

فأنا لن أتركِ يا نفسُ ! في غموض، وأخاطبكِ بصدق وأمانة كما خاطبكِ نبيّ الله إدريس عليه السلام. فتأمّلي يا نفسُ ! وتيقّني واعتقدي بأن وراء كلّ هذا النظام العظيم ناظم عظيم، وهو الله سبحانه وتعالى، وأنّ الإيمان به إيمانًا قويًّا راسخًا يجب أن يكون حجر الأساس في وجودك، ومنطلقك إلى الرحاب الوسيع من المعرفة الحقّة والسعادة والطمأنينة في هذه الدنيا وفي دار الخلود.

[1] لقد تبيّن أنّ الكرات في السماء، بما فيها الأرض، وأيضًا مدارات النجوم هي على شكل إهليجي بيضاوي، قريبًا من الكروي.

أنواع النجوم

[1] سأل جابر:- ما هي هذه النجوم في السماء التي تسطع وتشرق نورًا وتتحرّك دائمًا ؟ حتى أنّنا نرى بعضها في فواصل زمنيّة معيّنة، ولماذا لا تتوقّف عن الحركة حتى ليوم واحد ؟

أجاب الإمام عليه السلام:- كلّ نجم في السماء عالم قائم بذاته، ويدور في عالم أكبر منه، وهو عبارة عن مجموعة أجرام سماوية[2] . حركة النجوم الدؤوبة هي من أجل أن لا تسقط النجوم وتتدهور حتى لا يختلّ النظام الكونيّ[3] . وهذه الحركة الدؤوبة هي التي تنشأ منها الحياة، أو بالأحرى إنّ الحركة ذاتها هي الحياة، وإذا توقّفت الحركة اضمحلّت الحياة. ولكنّ الله جلّ وعلا قضى وقدّر أن لا تتوقّف الحركة طرفة عين، حتى تستقيم الحياة، وتستديم مكوّنات البقاء في الكون، ولا تخمد أبدًا. وهذا من كرم الله وجوده وفضله على الموجودات في هذا العالم.

إنّ الله سبحانه وتعالى غنيّ عن المخلوقات، ولا يحتاج إلى الحركة الدائمة الدؤوبة، ومن ثمّ الحياة والبقاء. الحركة ومن ثمّ الحياة هبة من الله، وهبها لمخلوقاته لأجلٍ مسمّى، وسوف تستمرّ الحركة والحياة إلى ما شاء الله أن تستمرّ[4] .

---

[1] من كتابي هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في سياق محاورة الإمام عليه السلام مع جابر بن حيّان.

[2] ونسميها مجرّات في العلم الحديث.

[3] هناك قوّتان متوازنتان تحفظان النجوم من السقوط والتبعثر في الفضاء وهما: الأولى - قوّة الجاذبيّة التي تأتي من الثقب الأسود الذي تدور حوله النجوم. والثانية - هي قوّة الطرد المحوريّة. وتوازنهما هو السبب في حركة النجوم الدؤوبة.

[4] قال الله تعالى في حديثه القدسي: كنتُ كنزًا مخفيًّا فأردت أن أُعرَف فخلقتُ الخلق لكي أُعرَف.

سأل جابر:- ما هو شكل النجوم في السماء ؟

أجاب الإمام عليه السلام:- بعض النجوم أجرام جامدة، والبعض الآخر أجرام مائعة، والبعض منها أجرام من البخار.

فتحيّر جابر بن حيان من ذلك وسأل: كيف نقبل أنّ النجوم هي من البخار، وهل من الممكن أن يسطع البخار ويشرق نورًا في ظلام الليل ؟

أجاب الإمام عليه السلام:- لا تتشكّل كلّ النجوم من الأبخرة. والنجوم التي تتشكّل من الأبخرة هي حارّة، وأنّ حرارتها العالية تتسبّب في سطوع النجم. كذلك سطوع الشمس هو بسبب حرارة الشمس العالية، وأظنّ أنّ الشمس تتشكّل من الأبخرة.

سأل جابر:- كيف تتسبّب الحركة في عدم سقوط النجوم ؟

أجاب الإمام عليه السلام:- هل أدرت فوق رأسك مقلاعًا فيه حجر ؟

قال جابر:- نعم.

فسأل الإمام عليه السلام:- هل أوقفت المقلاع بغتة أثناء دورانه ؟

أجاب جابر:- كلا لم أوقفه.

قال الإمام عليه السلام:- إذا أدرت المقلاع[1] مرّة أخرى فأوقفه، حتى ترى ماذا يحدث. فبعد توقّف المقلاع يسقط المقلاع، ويقع الحجر الذي فيه فوق الأرض. وهذه قرينة بأنّ النجوم تسقط إذا لم تكن في حركة دائمة.

[1] المقلاع المعروف تاريخيًّا ودينيًّا هو (مقلاع داود) الذي بوسيلته قتل داود عليه السلام جالوت. وعندما تدير المقلاع فإنّك توجد فيه قوّة الطرد المحوريّة.

فسأل جابر:- لقد قلتَ بأنّ أيًّا من النجوم التي نراها عالم قائم بذاته. أليس كذلك ؟

قال الإمام عليه السلام:- نعم.

الحياة خارج الأرض

فسأل جابر:- هل يوجد إنسان ويعيش في تلك العوالم ، كما هو في هذا العالم ؟

فقال الإمام عليه السلام:- لا أستطيع أن أجزم هل يعيش هناك إنسان في تلك العوالم أم لا. بيد أنّني أجزم بأنّ هناك موجودات أخرى حيّة تعيش في تلك العوالم، لا نراها لبُعد تلك النجوم عنا.

فسأل جابر:- ما هو برهانك ودليلك بأنّ هناك موجودات أخرى حيّة تعيش في تلك العوالم ؟

فقال الإمام عليه السلام:- برهاني هو كلام الله جلّ وعلا، وليس فوق كلام الخالق برهان. إنّ الله سبحانه وتعالى يذكر الجنّ بجانب الإنس، والجنّ موجودات حيّة لا نراها، بيد أنّ الله يراها، ولعلّ الجنّ التي تسكن في عوالم أخرى أناس مثلنا أو أكثر تطوّرًا منا.

فسأل جابر:- ماذا تعني من ذلك، ومن هم الناس الأكثر تطوّرًا منا ؟

فقال الإمام عليه السلام:- لعلّهم ناس انتقلوا إلى عالم أحسن، بعدما عاشوا في هذا العالم، كما أنّنا بعد الموت، إن كنا صالحين، سوف ننتقل إلى عالم أحسن.

سأل جابر:- إذا كانت الأمور على هذا المنوال، سوف نعيش على النجوم التي نراها في ظلام الليل، عندما نقوم من نوم الموت !

فقال الإمام عليه السلام:- لا أستطيع أن أقول لك أين سنكون بعد ما قمنا من نوم الموت، وربما كنا في هذا العالم الذي نعيش فيه. فلا مانع عند الله جلّ وعلا أن

يخلق الجنّة في هذا العالم الذي نعيش فيه الآن للصالحين من عباده، ويخلق النار للطالحين المذنبين، أو أن يجعل عباده من البشر في عالم آخر.

سأل جابر:- وهل يعلم الله الآن في أيّ عالم سنكون، بعد أن استيقظنا من سبات الموت ؟ أو أنه سيقرّر فيما بعد، وبعد أن أحيانا من سبات النوم، إلى أين سوف ينتقل الصالحون والطالحون ؟

قال الإمام عليه السلام: إنّ الله أزليّ أبديّ (بمعنى أنّه لم يولد ولن يفنى). إنّه العالم المطلق والقادر المطلق، لا يحدّه الزمان وهو خارج الزمان، ولا وجود للماضي ولا للمستقبل أمام إحاطته المطلقة، فهو محيط بما كان وبما سيكون.

لم يحدث شيء في هذا الوجود لم يُقدّره الله ويَقضيه ولم يُرده ولم يَحكم به، فهو الذي قضى أن تقع واقعة ما في زمان معيّن في الماضي، ولن يحدث شيء في هذا الوجود لم يقدّره الله ويَقضيه ولم يُرده ولم يَحكم به، فهو الذي قضى أن تقع واقعة ما في زمان معيّن في المستقبل، فهو يفعل ما يشاء بحكمته ويحكم ما يريد بعزّته.

وعلى فرض المحال، والعياذ بالله، لو حدث شيء في المستقبل البعيد لم يدبّره الله، ففي ذلك نفي لوجود الله وألوهيّته. بل الأحرى أنّ ذلك الحادث الذي لم يدبّره الله ولم يأمر به سيكون هو الله، والعياذ بالله. لأنّ تلك الواقعة التي استطاعت أن تخرج عن سلطة علم الله وقدرته لا بدّ أن تكون أعلم وأقدر من الله، والعياذ بالله، ولذا تستحقّ مقام الألوهيّة.

فالله سبحانه وتعالى قضى وقدّر وعلم أين سيكون الإنسان بعد موته. بل الأحرى أنّه جلّ وعلا قضى وقدّر وعلم ذلك من أوّل لحظة من خلق آدم عليه السلام.

الحياة ظاهرة كونية

وما ساعد على الاعتقاد بوجود الحياة على الكواكب الأخرى في الكون الوسيع، هو أنّه في النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد اكتشاف التلسكوبات الصوتية (تلسكوبات الراديو Radio Telescopes)، فقد تمكّن علماء الفضاء من اكتشاف مولوكولات في الفضاء، والتي يتضمّن قسم منها اللبنات الأساسيّة الكيماوية للحياة ، والخامات الكيماويّة لبناء الحياة وبيوت الخلايا الآمنة [1] ...

[1] لقد ذكرت في كتابي (ما هو سرّ الحياة) من صفحة ٢١ إلى صفحة ٢٥ ما يلي:-

والعجيب في الأمر أنّ الحياة في مناطق السوائل الأثيريّة والمجهريّة خُلقت جلّها على شكل قطرة ماء، يكون غشاؤها جزءًا من الحياة، بل إنّه الحارس الأمين الذي يحفظ الوظائف الحياتيّة داخل القطرة، ويمنع الأشياء الغير المرغوبة من النفوذ إلى داخل القطرة.

أمّا السوائل الأثيريّة فقد ذكرنا أمثالًا عنها في الكرات المغناطيسيّة للأرض والمشتري، والتي يصل قطرها إلى ملايين الكيلومترات. وأمّا السوائل المجهريّة فهي لا تُرى بالعين المجرّدة، وهي (الخلايا) التي هي اللبنات الأساسيّة لكلّ مظاهر الحياة، من نبات وحيوان وإنسان (مع احتمال استثناء الفيروسات والبريونات).

والعجيب أنّ الذي يمثّل هذا الشبه في عالم المادة هو الماء ومركّباته من السوائل الأخرى. ولكن ما هي النقطة التي يتحوّل عندها علم الكيمياء إلى علم الحياة ؟ أو بالأحرى ما هي النقطة التي تتبدّل عندها العناصر الكيماويّة (الميّتة) إلى عناصر بيولوجيّة حيّة ؟

ولماذا هذا الشبه العظيم الغريب بين الأجسام العملاقة في هذا الكون وبين أجسام صغيرة جدًّا جدًّا - متناهية في الصغر- والتي لا تُرى إلا تحت المجاهر القويّة ؟

لقد أجرى العلماء حديثًا اختبارًا رائعًا، فلقد أخذوا خليطاً من قطع الثلج البسيطة، والتي تحتوي على الماء وثاني أكسيد الكربون وأول أكسيد الكربون والمثانول، ثمّ برّدوها تبريدًا شديدًا إلى عشر

درجات فوق (الصفر المطلق)، أي ما يساوي ٢٦٣ درجة مئويّة تحت الصفر - علمًا بأنّ (الصفر المطلق) في نظام (كلوين) يساوي ٢٧٣ درجة تحت الصفر في النظام المئوي.

ثمّ عرضوا هذا الخليط البارد جدًّا من قطع الثلج إلى أشعّة ما فوق البنفسجيّة قويّة، لكي يقلّدوا الأوضاع السائدة في السحب الكونيّة الكثيفة، التي تكوّنت منها النظم الشمسيّة. وكان العلماء يتوقّعون ظهور عناصر جديدة أكثر تعقيدًا. ولكن ما حدث لم يكن في الحسبان، فلقد ذهلوا حينما شاهدوا ظهور مركّبات جديدة غير عادية في كمّياتها وتعقيداتها.

فلقد وجدوا أنّ هذه العمليّة غيّرت بعض العناصر الكيماويّة البسيطة الموجودة بوفرة في هذا الكون إلى جزئيات كبيرة، التي تتصرّف بطرق معقّدة، أكثر بكثير من العناصر التي بدأنا بها في هذه العمليّة - الطرق التي يعتقد الكثيرون من العلماء أنّها أساسيّة لبداية الحياة، أو بالأحرى وصلت بنا إلى نقطة يتحوّل فيها علم الكيمياء إلى علم الحياة، وذلك لأوّل مرّة في التاريخ العلمي البشري.

لقد توصّل العلم أخيرًا إلى أنّ السحب الكونيّة الكثيفة لا تتكوّن منها النظم الشمسيّة فحسب، بل إنّها أيضًا منبع صناعة اللبنات الأساسيّة الكيماوية للحياة. فلذلك يُعتقد الآن في الأوساط العلميّة بأنّ الحياة ليست مختصّة بالأرض فحسب، بل إنّ الكون جميعه ينبض بالحياة أيضًا.

وأطرف من ذلك، أنّ المركّبات الأساسيّة التي هي الأساس لظهور الخلايا - والتي هي على شكل قطرة ماء - والتي نعتبرها بيوتًا آمنة لبناء الحياة، كلّ هذه تتكوّن في السحب الكونيّة الكثيفة. فهذه السحب هي المصنع الطبيعي لصناعة النظم الشمسيّة (آلاف الملايين من الشموس، ويدور حول كلّ شمس منها كوكب أو عدّة كواكب) بالإضافة إلى صناعة الخامات الكيماويّة لبناء الحياة وبيوت الخلايا الآمنة، والتي هي على شكل قطرات ماء.

ولكن كيف وجدوا (بيوت الخلايا) - والتي هي على شكل قطرات ماء - في هذه السحب الكونيّة الكثيفة ؟

لقد أجرى العلماء الاختبار البسيط التالي :-

لقد أضافوا الماء إلى اللبنات الأساسيّة الكبيرة المعقّدة الناتجة عن الاختبار السابق، وذهلوا عندما شاهدوا أنّ بعض هذه المركّبات الجديدة تتحوّل إلى أشكال (قطرات ماء) صغيرة جوفاء ذات

إنّ وجود هذه المولوكولات في الفضاء الوسيع، يثبت بشكل علميّ لا يقبل الشك والترديد، بأنّ الحيوانات ومن جملتها الإنسان، ليست ظاهرة استثنائيّة منحصرة بالأرض، بل هي ظاهرة عامّة تعمّ الكون كلّه.

ونحن على يقين تامّ بأنّ الحياة في بداية عمر الأرض لم تكن موجودة، لأنّ الأرض في البداية كانت كتلة مصهورة ملتهبة، وأنّ الحرارة الشديدة كانت تمنع بروز الحياة على الأرض. وبعد أن برد سطح الأرض، وصلت إلى الأرض جراثيم الحياة التي يزخر بها الكون، وبدأت عمليّة الحياة على الأرض. إنّ جراثيم الحياة كانت تصل إلى الأرض دائمًا، إلا أنّها كانت تبيد، بسبب الأرض المصهورة المذابة المرتفعة الحرارة.

تركيبات معقّدة - والتي تذكّرنا بالخلايا، أو بالأحرى تشبه الخلايا في الحجم والشكل والتركيب، ولكن لا تنتمي إلى أصول عضويّة.

لقد وضعوا هذه (القطرات) تحت المجهر، ووجدوا أنّ لها تركيبات داخليّة تشير إلى تعقيدات كيماويّة. لقد ذهلوا عندما وجدوا أنّ هذه (القطرات) تحتوي على بعض العناصر الكيماويّة، ومنها ما تحوّل الأشعّة ما فوق البنفسجية إلى أشعّة الضوء المرئيّة.

وهذا دليل صارخ على أنّ هذه العناصر الكيماويّة - التي تستطيع أن تحرز هذا الإنجاز - مهمّة جداً لظهور الحياة. بالإضافة إلى أنّ تركيبات الغشاء في هذه (القطرات) مهمّة جدًا لفصل وحماية (الكيماويات المنهمكة في عملية الحياة) من البيئة الخارجيّة.

ومن المعلوم أنّ علم الحياة يستعمل الأغشية لحبس (الطاقات الخلويّة) وإنتاجها. أغشية (القطرات) التي اكتشفوها أشبه ما تكون بالبيوت، والجزيئات العضويّة الخامة التي اكتشفوها هي رائدة الكيماويات الحيّة، التي سوف تتحوّل إلى هذه البيوت، أو سوف تبني بيوتها بنفسها، وتصبح (خلايا)، والتي هي غنيّة عن التعريف، وهي الأساس لكلّ مظاهر الحياة.

نـجوم لامعـة

لقد كان الإمام جعفر الصادق عليه السلام يدرّس كلّ أنواع العلوم في المدينة المنوّرة، ولم يوجد علم لم يتطرّق إليه الإمام عليه السلام. ونظريّاته في العلوم تدلّ على نبوغه وعبقريّته وسبقه في هذا المضمار.

ومن بين نظريّاته العلميّة التي سبق بها العالم بـ ١٣٠٠ سنة نظريّته في نور النجوم كالتالي:-

إنّ هناك نجومًا في السماء

تحظى بلمعان وتألّق وضوء شديد

تبدو في قبالها الشمس نورًا باهتًا

من الواضح أنّ معلومات البشر المحدودة في علم النجوم، في زمن الإمام عليه السلام وفي الأزمان التالية، وحتى وقت قريب في عصرنا الحاضر، لم تتح للناس فرصة بأن يفهموا ويستوعبوا مقولة الإمام عليه السلام. وكانوا يفكّرون بأنّ ما قاله الإمام عليه السلام عن نور بعض النجوم، إنّما هو ضرب من الخيال، ولا يقبله العقل البشري. وكانوا يعتبرون مقولة الإمام عليه السلام من المستحيلات. فكيف يمكن أن تكون هذه النجوم الصغيرة بهذا النور واللمعان، بحيث تبدو الشمس في إزائها نورًا باهتًا !

ولقد تأكّد اليوم وبعد استعمال التلسكوبات الصوتية (تلسكوبات الراديو Radio Telescopes) من قبل علماء الفضاء، في النصف الأخير من القرن العشرين، التي تغطّي الكرة الأرضيّة جمعاء وتعمل كتلسكوب واحد، بأنّ نظرية الإمام جعفر الصادق عليه السلام نظريّة صحيحة

مئة بالمئة، وأنّ هناك نجومًا في السماء على بعد ٩ مليار سنة ضوئية[١] سمّوها كازار Quasar لها لمعان وضوء شديد، يفوق ضوء الشمس بعشرة آلاف مليار أضعاف[٢] .

---

[١] في حين أنّ آينشتين Einstein كان قد تنبّأ بأنّ الكون على شكل كرة، وقطر الكون لا يتجاوز ٣ مليار سنة ضوئيّة، وهذا طبعًا غير صحيح.

[٢] في أوائل القرن الواحد والعشرين اكتشفوا نجوم الكازار Quasar على بُعد ١٢ مليار سنة ضوئيّة، وهي ألمع الأجسام الكونيّة. وقد ذكرتُ في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) من صفحة ٤٣٩ إلى صفحة ٤٤١ بعضًا من اكتشافات ناسا في هذا الموضوع أسردها كالتالي:-

إن الفلكيين قد تصفّحوا المجرّات المتألّقة القصيّة الكازار Quasar - والتي هي ألمع الأجسام في الكون - وتفقّدوا ما تحت قلنسوتها، فوجدوا أحسن دليل ممكن على وجود الثقوب السوداء فيها، والتي يعتقد أنّها تزوّدها بالطاقة.

إنّ الدراسة الجديدة تؤكّد الفكرة التي تقول بأنّ الكازار Quasar ترسي ثقوبًا سوداء عملاقة، وأسطوانات منبسطة من المواد، والتي تدور بشكل لولبيّ باتجاهها. إنّ الفلكيين كانوا متحيّرين لعقود خلت بشأن الكازار Quasar، قبل أن يقرّروا بأنّ كلّ واحدة منها نشيطة جدًا، وهي في حالة تطوّر وارتقاء، وربما تحوي ثقوبًا سوداء عملاقة التي تشكّلت قبل بلايين السنين.

هذه النوسانات الكونيّة بين أدكن الأجسام الفضائيّة وألمعها، قد جعلت فهم المجرّات المتألّقة القصيّة الكازار Quasar صعبًا للغاية. إنّ الثقوب السوداء مكتظّة جدًا، وتتمتّع بجاذبيّة قويّة للغاية، بحيث إنّ كلّ شيء وحتى النور لا يستطيع الهروب من قبضتها وسلطتها. ولذلك فإنّ رصدها المباشر شيء مستحيل.

وعلى الرغم من أنّ الكازار Quasar هي مصادر قويّة جدًا للأنوار الكونيّة، إلا أنّها بعيدة عنّا بلايين السنوات الضوئيّة. ولذلك فإنّها تبدو نقاطًا صغيرة من النور، حتى أمام التلسكوبات القويّة جدًا. وأدهى من ذلك وأمرّ أنّ الغبار والغاز الذين يتنوّران بنور الكازار Quasar، يجعلان النظر في داخل هذه المجرّات المتألّقة القصيّة تحدّيًا كبيرًا.

إنّ الباحثين كان بإمكانهم أن ينظروا إلى البنيان الداخلي لاثنتين فقط من هذه الكازار Quasar، حينما وقفت مجرّة ما بينهما وبين الأرض، وشكّلت عائقًا انحنى بسببه ضوء (الكازارين). وبفضل ظاهرة (الجزّ الكوني) أو (عدسة الجاذبيّة) حصلوا على صورة مكبّرة منهما.

وقد اكتُشفت في النصف الثاني من القرن العشرين، على بُعد تسع مليارات من السنوات الضوئيّة، نجوم سمّوها بـ الكازار Quasar، واكتشفوا أنّ ضوءها تصل شدّته إلى عشرة آلاف مليار أضعاف ضوء الشمس، وتبعًا لذلك فإنّ حرارتها تصل أيضًا إلى عشرة آلاف مليار أضعاف حرارة الشمس.

ومعلوم أيضًا أنّ حرارة الشمس تتولّد من تحوّل الهيدروجين Hydrogen إلى هليوم Helium، وأنّ ٤٠٠ مليار طن من الهيدروجين Hydrogen تتحوّل إلى هليوم Helium في خلال ٢٤ ساعة من ساعاتنا الأرضيّة، وأنّ احتراق هذا الكمّ الهائل من الهيدروجين Hydrogen سوف يستمرّ عشر مليارات سنة أخرى، أي أنّ عمر الشمس سوف يستمرّ إلى عشر مليارات سنة أخرى.

إنّ المجرّة العائقة كوّرت النسيج المكاني الزماني وكبّرت صورة الكازار Quasar. إنّ ظاهرة تكبير الصورة تسمح للفلكيين برؤية البنيان الداخلي لـ الكازار Quasar ، والتي لولاها لبقيت غير مرئيّة.

يقول (كوجانك): كنّا محظوظين جدًّا، لأنّ المجرّات أو النجوم التي تقف عائقًا بيننا وبين الكازار Quasar، في بعض الأوقات، تتيح لنا فرصة نادرة كي نستفيد منها كتلسكوبات قوية ذات صور واضحة جليّة.

نحن الآن (٢٠٠٦/١٠/٥) لا ننظر إلى الكازار Quasar فحسب، بل بالأحرى نسبر أغوار الكازار Quasar ونصل إلى الثقب الأسود الذي يقبع في مركزه.

إنّ الفلكيين كان بإمكانهم قياس طول (أسطوانة التراكات) في كلّ من (الكازارين)، وأنّ طول واحدة منهما كان بمقدار ١٤ أضعاف المسافة ما بين الأرض والشمس.

يقول (كوجانك): إنّها هي أوّل مرّة يُقاس فيها طول (أسطوانة التراكات) حول إحدى هذه الثقوب السوداء. إنّ المساحة في الأسطوانتين تنبعث منها الأشعّة السينيّة، وهذا هو الدليل الناطق على أنّ المواد في مركز الأسطوانتين قد تسخّنت بفعل سرعة الأسطوانتين الفائقة، قبل سقوطهما على الثقبين الأسودين في (الكازارين) - أو المجرّتين المتألّقتين القصيّتين.

إنّ الفلكيين يدرسون في الوقت الحاضر (٢٠٠٦/١٠/٥) عشرين مجرّة من هذه الكازار Quasar، بمساعدة من المجرّات أو النجوم العائقة، وبأسلوب ظاهرة (الجزّ الكوني)، ويأملون بأن يتلقّطوا البيانات العلميّة من كلّها بشأن الأشعّة السينيّة.

وإذا كان نظام الطاقة على هذا المنوال في نجوم الكازار Quasar - كما هو في الشمس - فيا ترى إلى كم من المليارات من السنين يصل عمر هذه النجوم (نجوم الكازار Quasar) !

وفي توضيح لنوع الطاقة العظيمة التي توجد في نجوم الكازار Quasar، لإيجاد هذا الضوء الشديد وهذه الحرارة الفائقة، يقول البروفسور آلفون: أنّه لا يوجد في هذا الوجود غير انفجار المادة وضدّ المادة، كمصدر لمثل هذه الطاقة الهائلة.

عوالم في الكون [1]

لقد علّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام تلاميذه أشياء كثيرة مذهلة منها أنّه قال لهم:

إنّه لا يوجد عالم واحد في هذا الكون ،

بل هناك عوالم متعدّدة يزخر بها الكون[2] .

وكما ذكرنا فإنّه عليه السلام قد سبق العالم بـ ١٣٠٠ سنة بعلوم لم تتحقّق مصداقيّتها إلّا في الفترة الأخيرة، أي النصف الثاني من القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين.

---

[1] وقد ذكرت في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) صفحة ٥٣٦ على لسان عالم الفضاء الأمريكي المعروف (شوايتزر) قوله: إنّ الكون القابل للملاحظة والرصد والمراقبة يحتمل أن يكون جزء من كون أكبر بكثير، والذي يمكن أن يكون محدودًا أو غير محدود. إنّ إطلاق تصريحات شاملة عن الكون، وعلى وجه الإطلاق، مجرّد تخمينات. لأنّ كلّ ذلك يتطلّب توسعة النظريّات الرياضيّة والقياسات إلى ما وراء الكون الجدير بالملاحظة والرصد والمراقبة.

[2] ولقد ذكرتُ في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) صفحة ٥٢٥ و ٥٢٦ على لسان عالم الفضاء (شوايتزر) قوله: إن الكون القابل للملاحظة والرصد والمراقبة هو الكون الذي يتكلّم عنه علماء الفيزياء الكونيّة على العموم، لأنّه قابل للقياسات التجريبيّة والاختبارية والاستقرائيّة. إنّه في الحقيقة الكون الوحيد الذي نستطيع - أو سبق لنا - التكلّم عنه بأيّ شكل من أشكال اليقين.
أمّا الكون الثاني فهو مفهوم أوسع وأكبر. ويعتقد العلماء بأنّه يتوافق مع قوانين الفيزياء وكلّ الافتراضات المنسجمة معها. إنّ إدراك هذا الكون يحتاج إلى قفزة من الإيمان في حقول المعرفة الغير القابلة للملاحظة العلميّة.
وأخيرًا هناك كون ثالث، ويحتوي على كلّ شيء على نحو مطلق وبدون شروط، وحتى على احتمالات الأبعاد المتعدّدة والصيغ والأشكال والأساليب والمناطق الخاضعة لقوانين فيزياء لا نعرفها، أو ربما لن نعرفها أبدًا، بل إنّنا لسنا قادرين على إدراكها ومعرفتها.

إنّ التقديرات العلمية تشير إلى أنّ عمر شمسنا هو حوالي ١٥ مليار سنة، مضت منها حوالي ٥ مليارات سنة، وبقيت حوالي ١٠ مليارات من السنين. في حين أنّ التقديرات العلميّة تشير إلى أنّ عمر نجوم (الكازار Quasar) - وهي ألمع الأجسام الكونيّة وأكثرها تألّقًا - هو أكثر من ألف مليار سنة [١] . وبالمقارنة بينهما يظهر جليًّا بأنّهما ينتميان إلى عوالم مختلفة.

لقد علّم الإمام تلاميذه بأنّ هناك قسمين من العوالم: قسم ينتمي إلى العالم الأكبر وقسم ينتمي إلى العالم الأصغر[٢] . وقد سألوه تلاميذه عن عدد العوالم الأكبر والأصغر فأجاب: علمها عند ربي لا يعلم عددها إلا هو، ولا يمكن حصرها في عدد.

---

[١] واضح أنّ عالم (الكازار Quasar) الذي عمره ألف مليار سنة هو العالم الأكبر، في حين أنّ عالمنا في المنظومة الشمسية أو عالم الشمس - وعمره ١٥ مليار سنة - هو العالم الأصغر، حسب تقسيمات الإمام الصادق عليه السلام في الفصل اللاحق، التي أعلنها الإمام عليه السلام قبل ١٣٠٠ سنة.

[٢] وقد ذكرت في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) صفحة ٥٢٦ الى ٥٢٩ على لسان كاتب مبرّز من كتاب ناسا واسمه (روبرت روي بريت) في مجلّة الفضاء الأمريكيّة بتاريخ ٢٠٠١/٦/١٢ ما يلي:-

إنّ بعض علماء الكون يقولون بأنّ الكون القابل للملاحظة هو واحد فقط من الأكوان المتعدّدة الكثيرة التي تظهر فجأة باستمرار من سلسلة من الفقاعات والبقبقات ! وفي هذا السيناريو فإنّ انفجارًا كبيرًا واحدًا ينجب أو يولد أو يجلب انفجارًا كبيرًا آخر.

هناك بعض السيناريوهات التي برزت مؤخّرًا إلى الوجود تعتقد بأنّه بدلًا من الظهور الفجائي للكون في لحظة عنيفة من نقطة متناهية في الصغر، فإنّ كوننا هذا قد خُلق عندما تصادما غشاءان متوازيان. هذه الأغشية - كما تسمّيها هذه النظريات - تطوف خلال بُعد خامس ! مثل صحائف الورق، وتتدافع بقوّة وعنف مع بعضها البعض، وتولّد طاقة وحرارة، والتي أدّت في نهاية المطاف إلى نفس التوسّع الذي تصفه (نظرية الانفجار الكبير) التقليديّة.

إنّ هذه النظريّة لا تحلّ محلّ (نظرية الانفجار الكبير)، ولكنّها تقدّم الطريقة البديلة لكيفيّة الحركة المفاجئة، التي ولّدت توسّع الكون الملاحظ حاليًّا. ومهما كان، فإنّ (نظرية الانفجار الكبير) لا تشرح حقيقة كيفيّة بداية الكون. بل إنّها تفترض بأنّ المكان والزمان والطاقة قد سبق لها أن وجدت. ومن هنا نشرع في بحث ومناقشة النظريّة القياديّة لكيفيّة ولادة الكون كما هو ملاحظ حاليًّا.

يقول (ليفيو): إنّ الكون بدأ من حالة حرارة شديدة استثنائيّة ومدهشة، وكثافة عالية خارقة للعادة. ومنذ ذلك الحين والكون يتوسّع. وقد قدّم لنا (ليفيو) تعريفًا لنموذج (الانفجار الكبير) ربّما هو الأوجز والأكثر اختصارًا في العالم. ولكن هناك المزيد من توضيح المغزى وتبيين الحقيقة وإظهار الواقع، بما فيه كلمة (الكثافة)، بأنّها بالأحرى وبشكل أدقّ، تصوّر أمرًا أقلّ مما يقتضيه الحال.

يقول (شوايتزر): إنّ كلّ ما يوجد الآن في الكون - في كوننا الملاحظ على أقلّ تقدير - كان في يوم من الأيام جميعها مكبوسًا ومضغوطًا في حقل بقطر جزء من مليون جزء من المتر، أو أصغر بكثير مما تستطيع العيون رؤيته. وهذا ربما لاح لنا كشيء صغير جدًّا متناهٍ في الصغر، ولكن يبدو لنا ذلك بسبب منظورنا البشري المحدود لا غير.

وأضاف (شوايتزر) قائلًا: إنّ الكون اليوم هو فارغ بشكل خارق العادة. تصوّر على سبيل المثال حجم الفضاء الخالي في منظومتنا الشمسيّة وانظر كم هو فارغ، رغم وجود تسعة كواكب فيها، في منطقة قطرها أقل من ١٤,٥ بليون كيلومتر. وهذا الفضاء الفارغ في منظومتنا يُعتبر مزدحمًا بالمقارنة مع مسافات شاسعة واسعة فسيحة وخالية بين النجوم، والتي لا يوجد فيها غير بضع من الجزيئات متسكّعة ومعلّقة هنا وهناك.

لذلك فهناك حيّز كثير لاكتناز ما يوجد في الكون. ولكن كانت هناك مبادلة في مقابل الصورة المصغّرة ، تمامًا كمبادلة سيّارتك الغالية في تشغيلها ولكنّها واسعة وفسيحة، مقابل سيّارة رخيصة في تشغيلها لكنّها ضيّقة للجلوس فيها. وفي حالة الكون كانت المبادلة بالكون الفارغ في مقابل الحرارة الشديدة التي لا يتصوّر مداها وشدّتها.

يقول (شوايتزر): كانت حرارة جبّارة شديدة البأس بدرجة حرارة خياليّة غير متصوّرة - أو بعبارة أخرى بدرجة حرارة رقم واحد وعلى يمينه ثلاث وثلاثون صفرًا - وعلى مرّ الزمن توسّع الكون، وبالتدريج تقلّصت الحرارة.

وهذا التوسّع الكونيّ اكتُشف في العشرينات من القرن العشرين، عندما راقب أدوين هابل Edwin Hubble بعض المجرّات بتلسكوبه، فوجدها تتسابق بانطلاقاتها السريعة متباعدة عنا. وكانت (نظرية الانفجار الكبير) هي التفسير الأوّلي لهذا التوسّع. وظلّت الأمور هادئة فعلًا إلى أواخر القرن العشرين، حينما اكتشف بأنّ الكون لا يتوسّع فقط، بل يتوسّع بتسارع - أي تتزايد سرعته في كلّ لحظة !

وهذا ما تؤيّده اكتشافات علماء الفضاء في ناسا وغيرها. فكلما تقدّم العلم، وزادت الاكتشافات وكثرت، يتبيّن بأنّ عدد الشموس والمجرّات في الكون أكثر مما كان يتصوّر.

كان العالم اليوناني أرخميدس Archimedes – الذي كان يعيش في القرن الثالث قبل الميلاد – قد عيّن ذرّات العالم بعدد ١٠ أس ٦٣ (أي $١٠^{٦٣}$)، بمعنى واحد وعلى يمينه ٦٣ من الأصفار. بيد أنّ العالم الفيزيائي الإنكليزي أدينكتون Eddington في أوائل القرن العشرين كان قد عيّن عدد ذرّات العالم بعدد ١٠ أس ٨٠ (أي $١٠^{٨٠}$)، بمعنى واحد وعلى يمينه ٨٠ من الأصفار.

وعندما حسب علماء الفضاء عدد المجرّات من المعادلة الرياضيّة التي قدّمها (أدينكتون Eddington) في أوائل القرن العشرين، وجدوا أنّ عددها هو حوالي مليون مجرّة فقط.

في ذلك الوقت لم يوجد مرصد بالومر Palomar Observatory في أمريكا، الذي أتاح للعلماء فرصة رصد النجوم والمجرّات، التي تبعد عنّا بحوالي ٢ مليار من السنوات الضوئيّة.

وكذلك لم توجد تلسكوبات الراديو Radio Telescopes (التلسكوبات الصوتية) في ذلك الحين، والتي وصل مداها اليوم إلى ١٢ مليار سنة ضوئيّة أو أكثر.

وكان للتوسّع آثار وعواقب، ألا هي التموّجات ذات الأهمّية الكبرى، والتي تسبّبت في إطلاق كتل مكوّمة ونتوءات ومطبّات في نسيج المكان، الذي كان من قبل متشابهًا متماثلًا. وهذه الكتل والنتوءات أدّت إلى ولادة المجرّات الأولى.

إنّ (نظرية الانفجار الكبير) كانت قد تنبّأت منذ أمد طويل بأنّ عواقب هذه التموّجات لا بدّ أن تكون متواجدة اليوم في كلّ مكان من الكون، بشكل وهج باهت من الإشعاعات تسمّى (إشعاعات خلفيّة الأمواج المجهريّة الكونيّة). وقد تأكّد وجود هذه الإشعاعات في عام ١٩٦٤.

العالم الأصغر والعالم الأكبر

إذن ما قاله الإمام جعفر الصادق عليه السلام قبل أدينكتون Eddington بـ ١٢٠٠ عام إنّما هو صدق وحقّ:

علمها عند ربّي لا يعلم عددها إلا هو

ولا يمكن حصرها في عدد.

والمفهوم الآخر الذي توصله إلينا نظريّة الإمام عليه السلام هو أنّ الجنس البشري غير قادر على إحصاء العوالم الكبيرة والصغيرة مهما تقدّم في العلوم.

إنّ عالم العلم الذي كان يعيش فيه أدينكتون Eddington في حوالي عام ١٩٠٠ ميلادي هو حقًّا بمثابة فنجان شاي في قبال البحر الوسيع من العلوم الذي نعيش فيه الآن - أي في أوائل القرن الواحد والعشرين - وعلى الأخصّ علوم الفضاء والفيزياء.

لقد قال الإمام:

إنّ الفرق بين العالم الأكبر والعالم الأصغر

هو في حجمه لا في كتلته.

وهذه النظرية يؤيّدها علم الفيزياء اليوم.

إنّ بين الإلكترونات والنواة في الذرّة فضاءًا وسيعًا فارغًا، ولو أنّ الفضاء الفارغ الخالي أُزيل من بين الإلكترونات والنواة في داخل الذرّات، بحيث تبقى الإلكترونات والنواة فقط لا غير، لأصبحت الكرة الأرضيّة بحجم كرة القدم - أو أصغر - بيد أنّ وزنها لا ينقص منه شيء، أي أنّ كرة القدم هذه تكون بوزن الأرض.

علمًا بأنّ الكرة الأرضيّة في الفضاء معدومة الوزن، كما أنّ جميع الكواكب التي تدور حول الشمس، وكلّ الأجرام السماويّة في فضاء الكون الوسيع والتي تدور حول أجرام أخرى، كلّها عديمة الوزن، لأنّ سرعة دورانها حول المحور تفقدها الوزن.

ولقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

ما هو موجود في العالم الأصغر

موجود أيضًا في العالم الأكبر ولكن بحجم أكبر.

وما هو موجود في العالم الأكبر

موجود أيضًا في العالم الأصغر ولكن بحجم أصغر.

وأنّ الخواصّ الكامنة في العالم الأكبر

هي نفسها التي في العالم الأصغر ولكن في حجم أكبر[1]

[1] إنّ هذا الشبه العجيب الغريب بين العالم الأصغر والعالم الأكبر، رغم الفرق الكبير في الأحجام، مما يثير الإعجاب والذهول من هذا الوجود العظيم. وأكبر مثال على ذلك هو الموضوع الذي ركّزت عليه في كتابي (ما هو سرّ الحياة) صفحات ١٣-١٤: وهو المقارنة بين الأجسام الأثيريّة والأجسام المجهريّة.

فمن الأجسام الأثيريّة، الهالة أو السيّالة المغناطيسيّة للأرض والمشتري والشمس وغيرها من الأجرام السماوية. وكما ذكر في الكتاب، فإنّ هذه الهالات أو السيّالات جميعها هي في الواقع على شكل قطرة ماء.

وعلى سبيل المثال، ولكي تتصوّر مدى كبر حجمها، فإنّ الإلكترونات الدائرة في فلك الميدان المغناطيسي داخل الكرة المغناطيسيّة للمشتري، يصل قطرها إلى ١٤٣ ألف كيلومتر. والآن تُجري أجهزة سفينة فضاء كاسيني Cassini قياساتها لحدود الذيل المغناطيسي لكوكب المشتري، والذي يصل طوله إلى ٣٠ مليون كيلومتر من الكوكب.

ويكفي أن تقارن هذا الحجم الكبير جدًّا جدًّا جدًّا مع حجم الخليّة التي لا تُرى بالعين المجردة، رغم الشبه العجيب الغريب بينهما، وأنّ كليهما على شكل قطرة ماء !!!

ومن الأجسام المجهريّة، التي لا تراها بالعين المجرّدة، الخليّة. وهي لا تُرى إلا تحت المجاهر القويّة التي اختُرعت حديثًا. والعجيب الغريب أنّها رغم صغرها المتناهي في الصغر فهي أيضًا على شكل قطرة ماء.

وفي صفحات ٤٣-٤٤ من كتابي (ما هو سرّ الحياة) الحقائق التالية:-

وظهرت نظريّة الخلايا في سنة ١٨٣٨، وأعقبتها في سنة ١٨٥٥ نظريّة تقول بأنّ الخلايا الجديدة تأتي من خلايا سابقة - أي نظريّة (انقسام الخلايا). وفي سنة ١٨٦٩ عُزِلَتْ لأوّل مرّة المادة الجينيّة. وفي سنة ١٨٨٣ ظهرت نظرية الوراثة عن طريق الكروموسومات (الكامنة في مني الإنسان والحيوان). وفي سنة ١٩٣٩ صُنِعَ المجهر الإلكتروني النقّال، وأعقبها في سنة ١٩٦٥ المجهر الإلكتروني التحليلي. وكلا المجهرين سهّلا بكثير عمليّة رؤية الخلايا ودراسة أشكالها وانقساماتها وحركاتها وسلوكيّاتها. أمّا نظريّة (السلّم المضاعف والتفافهما حول بعضهما البعض) بالنسبة لشكل تركيب المادة الجينيّة - الواقعة في نواة الخليّة - وشكل حركاتها، فهي حديثة العهد واكتُشفت في سنة ١٩٥٣.

ولدعم أقوال الإمام جعفر الصادق عليه السلام ونظريّاته العلميّة، فلا مناص إلا أن نذكر الصورة الكاملة لاكتشافات ناسا الحديثة جدًّا، وذلك من كتابي (ما هو سرّ الحياة) صفحات ١١ إلى ١٤ كالتالي:-

وكنت منذ تلك الأيام أسأل نفسي متى سيستطيع العلم الحديث أن يصوّر هذه السيّالة أو الهالة المغناطيسيّة التي ذكرها أستاذي ومعلّمي قدّس سرّه. وفعلًا قرأتُ في نشرة (الطيران في الفضاء الآن) المؤرخة ٢٠٠١/١/٢٥م، التي تُبثّ من الإنترنت تحت عنوان:

""كاميرا السفينة الفضائية كاسيني Cassini ترى غير المرئيّات خلال دورانها حول كوكب المشتري"

بأنّ الإنسان قد تمكّن بجهاز خاصّ يسمّى (جهاز تصوير الكرة المغناطيسيّة) أو اختصارًا باللغة الإنجليزية ميمي MIMI من تصوير الكرة المغناطيسيّة لكوكب المشتري. ولقد حصلت فعلًا على هذه الصورة ، فكانت نقطة عطف في تفكيري. فصرتُ أعرف أنّ اليوم المرتقب قريب جدًّا.

وطبعًا إنّ هذا الإنجاز العملاق لم يأتِ من فراغ، وأنّ مشروع كاسيني Cassini الضخم كلّف ناسا NASA حوالي ثلاثة بلايين ونصف دولار أمريكي. ولقد قال أحد العلماء الكبار المسؤول عن هذا الجهاز يسمّى (كريمي جيس): "لقد استطعنا أن ننظر إلى غير المرئي خلال جهاز ميمي MIMI".

ولقد صُوِّرت هذه الهالة المغناطيسيّة من مسافة حوالي عشرة ملايين كيلومتر من كوكب المشتري، واستطاعت ميمي MIMI أن تأخذ صورًا من الكرة العظيمة المليئة بالطاقة وعناصر الهيدروجين والأوكسجين والكبريت وأكسيد الكبريت. وبتجهيز الفيلم المتحرّك من هذه الصور، سيكون في إمكاننا رؤية تحرّكات الانقباض والتمدّد في الكرة المغناطيسيّة التي تُحدِثها الضغوط الجبّارة للرياح الشمسيّة.

وإذا أضفنا إلى هذه الصور القياسات العديدة التي سجّلتها ميمي MIMI، فسيكون بإمكاننا رؤية التركيبات الكيماويّة لعناصر الكرة، بالإضافة إلى رؤية أشكال وديناميكيّات الكرة المغناطيسيّة. ويُعتقد أنّ هذه العناصر تأتي إليها من براكين قمر المشتري، فتقع في مصيدة المغناطيس، حيث تكتسب الطاقة وتجري بسرعة هائلة داخل الكرة. وهنالك تصطدم بعناصر أخرى تزوّدها بالإلكترونات، فتتّحد معها وتصبح محايدة، ومن ثمّ تستطيع الهروب من الكرة المغناطيسيّة. وهذه العناصر المحايدة الهاربة تكتشفها كاميرا ميمي MIMI.

وأيضًا اكتشفت ميمي MIMI سحابة كثيفة من عناصر الأوكسجين والصوديوم والكبريت والبوتاسيوم وأكسيد الكبريت، وهي تلتفّ حول كوكب المشتري إلى مسافة اثنين وعشرين مليون كيلومترًا (٢٢ مليون كيلومتر)، ويُعتقد أنّها غازات براكين قمر المشتري التي استطاعت الهروب من الكرة المغناطيسيّة للمشتري، ومن ثمّ حُملت بواسطة الرياح الشمسيّة إلى هذه المسافات الشاسعة. وأيضًا اكتشفت ميمي MIMI الإلكترونات الدائرة في فلك الميدان المغناطيسي داخل الكرة المغناطيسيّة للمشتري، الذي يصل قطره إلى ١٤٣ ألف كيلومتر. والآن تُجري أجهزة سفينة فضاء كاسيني Cassini قياساتها لحدود الذيل المغناطيسي لكوكب المشتري والذي يصل طوله إلى ثلاثين مليون كيلومتر من الكوكب.

ويصفون هذه الكرة المغناطيسيّة بأنّها (فقاعة من العناصر المليئة بالطاقة) احتُجزت داخل البيئة المغناطيسيّة للكوكب. والعناصر السريعة الحركة التي تدخل هذه الفقاعة تلتقط الإلكترونات وتتّحد معها، فتصبح عناصر محايدة، ومن ثمّ تنفلت من الميدان المغناطيسي للمشتري هاربة بمعدّلات سرعة هائلة تصل إلى الآلاف من الكيلومترات في كلّ ثانية.

أو بعبارة أخرى لو وُجِدَتْ القدرة اللازمة، لكان بالإمكان صنع العالم الأكبر من العالم الأصغر، وصنع العالم الأصغر من العالم الأكبر.

عندما نسمع هذه النظريّات نتخيّل أنّنا في محضر أستاذ فيزيائي معاصر، أو أنّنا نقرأ الكتب الفيزيائيّة الحديثة، في حين أنّ هذه النظريّات الرائعة البديعة قد أُبْرِزَتْ قبل ١٣٠٠ عام.

وكاميرا ميمي MIMI تبني الصورة المغناطيسيّة من هذه العناصر المحايدة التي تصل إلى السفينة الفضائيّة، كما تبني الكاميرا العادية الصورة العادية من وحدات (فوتونات) الضوء التي تصل إليها.

علوم العوالم الأخرى

سأل تلاميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام معلّمهم: لقد قلت: توجد عوالم أخرى وراء هذا العالم، وفي هذه العوالم توجد علوم. ولو تعلّم أحد كلّ علوم هذا العالم ثم دخل في عوالم أخرى لكان جاهلًا، وكان يجب عليه أن يشرع في التعلّم من جديد حتى يصل إلى علوم تلك العوالم الأخرى. ما هو قصدك من علوم العوالم الأخرى ؟

أجاب الإمام عليه السلام: غير هذا العالم الذي نعيش فيه، هناك عوالم أكبر بكثير من هذا العالم، وفي تلك العوالم علوم ربّما تكون مختلفة عن علوم هذا العالم.

سألوه التلاميذ: كم هو عدد العوالم الأخرى ؟

أجاب الإمام عليه السلام: لا يعلم عددها إلا الله.

سألوه: كيف تختلف علوم العوالم الأخرى عن علوم عالمنا هذا ؟ أليس العلم بالتعلّم ؟ وإذا كان العلم بالتعلّم، فكيف يمكن أن تكون علوم العوالم الأخرى مختلفة عن علوم هذا العالم ؟

أجاب الإمام عليه السلام: في العوالم الأخرى يوجد نوعان من العلم، نوع واحد مشابه لعلوم هذا العالم. ولو وصل واحد منّا إلى تلك العوالم الأخرى، يكون بإمكانه أن يتعلّم تلك العلوم. بيد أنّه في العوالم الأخرى، ربما توجد علوم لا تستطيع عقول البشر إدراكها، لأنّها علوم غير قابلة للفهم والإدراك بهذا العقل الذي عندنا.

فيا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم ما يجري في عالم المادة المضادّة !

ويا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم ما يجري في عالم الذرّة !

ويا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم ما يجري في عالم مكوّنات الذرّة، وفي حرارة قصوى تصل إلى مائة تريليون درجة مئويّة !

ويا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم ما يجري في عالم أقطاب متضادّة اسمها (كوارك وجلون Quark-Gluon) وهي في شكل سائل مطلق لا لزوجة فيه إطلاقًا {أو كما سمّاها الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالماء في خطبته الشهيرة عن نشوء الكون}!!

ويا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم ما يجري في عالم (الصفر المطلق) وهو عالم ٢٧٣,١٦ درجة تحت الصفر، وحسب أقوال العلماء فإنّ الحركة تتوقّف في المادة في هذه الدرجة القصوى من البرودة !

ويا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم ما يجري في عالم المادة الداكنة التي تشكّل ٢٣% من الكون !!

ويا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم ما يجري في عالم الطاقة الداكنة التي تشكّل ٧٣% من الكون !!!

أم يا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم عالم النوم !

أم يا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم عالم اللاوعي أو عالم العقل الباطن في الإنسان !

أم يا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم النشأة الآخرة !

أم يا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم عالم روح الإنسان !

أم يا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم عالم روح الحيوان !

أم يا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم عالم روح النبات !

أم يا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم عالم روح الجماد !

أم يا تُرى هل يستطيع البشر أن يدرك علوم الجنّ !

أم هل يستطيع البشر أن يدرك علوم سكّان الكواكب الأخرى !

أنا لا أرى البشر إلا أنّهم قد لمسوا بعض قشور العلوم، رغم تقدّمهم الهائل في العلوم في أوائل هذا القرن، القرن الواحد والعشرين ! ويبقى العلم كنزًا مخفيًّا في علم الله، الذي يطلع عباده ممن يشاء، إذا شاء، ما يشاء من علمه المخفيّ في كنوزه ! وهذه العلوم بالنسبة للبشر هي من الغيبيّات. وكلّ شيء في العالم نسبيّ لنا، ما دمنا نحن البشر نسبيّين.

يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه في آخر سورة الجن الآيات ٢٦ - ٢٨ : { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا }.

ويقول الله تبارك وتعالى في سورة الحج الآية ٧٥: { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }.

وفعل (يصطفي) هو فعل مضارع، ويدلّ على الاستمراريّة. تأكّد أنّ الله لم يفعل شيئًا في الماضي لا يفعله الآن، ففيضه جار من الأزل إلى الأبد ! ممكن الأسماء تتغيّر، لكن المحتوى باقٍ ما بقيَ الدهر.

يقول رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم:

عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيل

وفي رواية أخرى:

عُلَمَاءُ أُمَّتِي أَفْضَلُ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيل

وإذا كان كذلك

"فانشد نبيّ زمانك"

كما قال جلال الدين الرومي (رض)

فالذي تنشده ربّما كان أشعث أغبر، كما قال رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم:

رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ

فلا تغترّ بالمدّعين ولا بمن يلبسون ثياب الأنبياء وعملهم عمل الجبّارين.

يقول رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم:

أَبْغَضُ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ مَنْ كَانَ ثَوْبَاهُ خَيْرًا مِنْ عَمَلِهِ

أَنْ يَكُونَ ثِيَابُهُ ثِيَابَ الأَنْبِيَاءِ

وَعَمَلُهُ عَمَلَ الْجَبَّارِينَ

سكّان الكواكب الأخرى

من العجيب أنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام قد اخترق حجب العلوم، وهو أوّل من قال بأنّ التراب ليس عنصرًا بسيطًا - كما قال أرسطو Aristotle قبله بألف سنة، وفي خلال هذه المدّة الطويلة لم يعترض على نظريّة أرسطو Aristotle، لا علماء اليونان ولا علماء الإسكندريّة - بل هناك العديد من العناصر، التي وصل عددها اليوم في العلم الحديث إلى ١١٨ عنصرًا.

وهو أوّل من قال بأنّ الهواء ليس عنصرًا بسيطًا - كما قال أرسطو Aristotle - بل هناك العديد من العناصر في الهواء. وهو أوّل من اكتشف بأنّه يوجد في الهواء شيء - الأوكسجين - يساعد على الاحتراق ، وأنّ هذا الشيء نفسه هو سبب فساد الفلزّات.

وهو أيضًا أوّل من قال:

> في العوالم الأخرى يوجد نوعان من العلم، نوع واحد مشابه لعلوم هذا العالم. ولو وصل واحد منّا إلى تلك العوالم الأخرى، يكون بإمكانه أن يتعلّم تلك العلوم. بيد أنّه في العوالم الأخرى، ربّما توجد علوم لا تستطيع عقول البشر إدراكها، لأنّها علوم غير قابلة للفهم والإدراك بهذا العقل الذي عندنا.

وهو أيضًا أوّل من قال قبل ١٣٠٠ سنة:

> أنّه ربما هناك سكّان في الكواكب الأخرى، لا نعرفهم، ولديهم علوم لا تدركها عقول البشر، وربما هم يحاولون أن يرتبطوا معنا بشكل من الأشكال. ولأنّنا لا ندرك علومهم بعقلنا البشري، ولا نعرف لغتهم، لذا لا نعلم حتى الآن بأنّهم يحاولون أن يرتبطوا معنا، وأن يتكلّموا معنا.

إنّ وجود موجودات من الكواكب الأخرى مسألة كان الإمام متيقّنًا منها، لأنّه ورد في القرآن المجيد، في مواضع كثيرة ، اسم الجنّ - يعني موجودات لا نراها - في قبال الإنس - يعني نوع البشر. وحتى أنّه ذكر في القرآن الكريم بأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحشرهم جميعًا، حيث يقول الله تعالى في سورة الأنعام الآية ١٢٨: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }.

بيد أنّه لم يقل أحد من البشر، قبل الإمام جعفر الصادق عليه السلام، شيئًا عن علوم سكّان العوالم الأخرى، أو علوم موجودات لا ترى ، كما قال الإمام عليه السلام في كلامه الآنف الذكر.

ومضت قرون بعد الإمام جعفر الصادق عليه السلام، لم يتكلّم أحد بذلك، إلى أن جاء القرن التاسع عشر، وطرح العالم الفرنسي كاميل فلاماريون Flammarion Camille نظريّة عن ارتباط البشر بسكّان الكواكب الأخرى، من دون أن يعرض نظريّته على محكّ التجربة. لأنّه في ذلك الوقت لم تكن التكنولوجيا متقدّمة، بحيث يستطيع فلاماريون Flammarion تجربة نظريّته.

وأوّل مرتبة وضعت نظريّة الإمام جعفر الصادق عليه السلام على محكّ التجربة العمليّة، كان في عام ١٩٢٠ - يعني ١٢٠٠ سنة بعد الإمام الصادق عليه السلام - حيث أعلن ماركوني Marconi - مخترع الراديو - في اجتماع ضبّاط من الجيش البحري الإيطالي، برئاسة الأدميرال (كنت ميلو)، بأنّه يتلقّى في محطّته اللاسلكيّة في سفينته، أمواجًا لاسلكيّة، التي هي من دون شكّ تأتي من موجودات عالمة ذوي ذكاء وفنّ، الذين يريدون أن يرتبطوا بنا نحن موجودات الأرض. علمًا بأنّ ماركوني Marconi الإيطالي هو أوّل من جرّب عمليًّا اللاسلكي في تاريخ العالم.

لم يستطع ماركوني Marconi - مخترع الراديو - أن يكمّل إنجازاته التجربيّة بهذا الصدد، لأنّه لم تُخترع حتى ذلك الوقت تلسكوبات الراديو (التلسكوبات الصوتية Radio Telescopes)، وكانت التلسكوبات العادية (التلسكوبات البصريّة Optical Telescopes) آنذاك ضعيفة، ولم تكن لها القدرة الكافية على أن تبصر الكواكب خارج المنظومة الشمسيّة جيّدًا.

ولم يُخترع حتى ذلك الوقت تلسكوب مرصد جبل بالمر mount Palomar Observatory في أمريكا، حيث كانت العدسة كبيرة وقطرها يصل إلى خمسة أمتار، حتى يتاح لـ ماركوني Marconi أن يبصر مجرّات ونجومًا وكواكب، على بُعد مليارين من السنوات الضوئيّة.

وبعد أن اختُرعت تلك التلسكوبات ثبت بأنّه لا يمكن الارتباط بموجودات الكواكب الأخرى بواسطة هذه التلسكوبات. علمًا بأنّ تلسكوب مرصد جبل بالمر mount Palomar Observatory كان يرصد المجرّات على بُعد ملياري سنة ضوئيّة، بيد أنّها كانت تراها على شكل نقط كبيرة نسبيًّا، ولا تستطيع إدراك سعتها وعظمتها.

وكتبت مجلّة تايمز Time Magazine الأمريكيّة سلسلة مقالات في عام ١٩٧٢ بصدد الارتباط بسكّان الكواكب الأخرى، حيث أشارت إلى التجارب التي كان علماء الإتحاد السوفييتي يجرونها، في ذلك الوقت، على الارتباط اللاسلكي بموجودات العوالم الأخرى، بواسطة تلسكوبات الراديو Radio Telescopes (التلسكوبات الصوتية).

كان علماء الإتحاد السوفييتي لا يشكّون أبدًا بأنّهم يتلقّون رسائل من كواكب أخرى، خارج المنظومة الشمسيّة، بواسطة تلسكوبات الراديو Radio Telescopes، وكانوا يردّون عليها. إلا أنّه كانت هناك مشكلة كبيرة وهي مشكلة الزمان.

فأقرب كوكب يرسل رسائله إلى الأرض، هو على بُعد مائة سنة ضوئيّة من الأرض. فإذا أجاب العلماء على تلك الرسائل، فإنّه يحتاج إلى مائة سنة، حتى تصل هذه الرسائل إلى ذلك الكوكب. ويجب الانتظار مائة سنة أخرى، حتى يصل الردّ من أقرب كوكب من الأرض. علمًا بأنّ بعض الرسائل تصل من عوالم قصيّة جدًّا، بحيث أنّه ربما أُرسِلت الرسائل إلى الأرض، قبل ملايين السنين، وقبل عهد الدينوصورات، ناهيك عن عصر الإنسان.

وكتبت مجلّة تايمز Time Magazine الأمريكيّة: إنّ أوّل مرّة حصلت فيها تجربة تلقّي الرسائل من الموجودات العالمة الذكيّة من الكواكب الأخرى، كان في زمن ماركوني Marconi، حيث تلقّى

الأخير رسائل لاسلكية عام ١٩٢٠ وقال: إنّه لا يشكّ أنّ هذه الرسائل قد أرسلتها موجودات عالمة ذكيّة من الكواكب الأخرى.

وقد كتبت ابنة الأدميرال (كنت ميلو) إلى مجلّة تايمز Time Magazine الأمريكيّة قائلة: إنّها تشهد بأنّ ماركوني Marconi أخبر أباها بأنّه يتلقّى الرسائل من الكواكب الأخرى في محطّة اللاسلكي، في السفينة التي كان يجري فيها اختباراته، والتي كانت تسمّى (سفينة التكرا). ونشر هذا الخبر في مجلّة تايمز Time Magazine الأمريكيّة في تاريخ ٢١ مايو ١٩٧٣.

الكون يتمدّد ويتقلّص

كان الإمام جعفر الصادق عليه السلام يعلّم تلاميذه علومًا غاية في العظمة والروعة لا نظير لها في التاريخ البشري. فمثلًا كان يعلّم تلاميذه نظريّة الانبساط والانقباض في الأكوان ويقول:

إنّ الأكوان ليست بحالة واحدة

إنّما هي تتوسّع أحيانًا وتتقلّص أحيانًا أخرى.

وكلّ منها لها دورة معيّنة،

ففي دورة تتوسّع الأكوان

وفي دورة أخرى تتقلّص الأكوان.

كانت هذه النظريّة كما هي نظريّاته الأخرى تبدو غريبة على العلماء في زمانه، وفي أزمان تالية، وحتى وقت قريب في عصرنا الحاضر. إلى أن بدأت التلسكوبات في التطوّر، واختُرِعت تلسكوبات قويّة من القرن الثامن عشر إلى اليوم.

وبفضل هذه التلسكوبات القويّة ودائمة التطوّر ، رصد العلماء أجرام منظومتنا الشمسيّة بشكل أحسن. ليس هذا فحسب بل رصدوا أجرامًا خارج منظومتنا الشمسيّة، بشكل أحسن أيضًا.

وفي بداية القرن العشرين رصد عالم فلكيّ بلجيكيّ اسمه لومتر Lemaître بعض المجرّات القريبة من مجرّة درب التبانة Milky Way التي نعيش فيها، ولاحظ أنّها تبتعد تدريجيًّا عن مجرّتنا. وبعد أن تكرّرت تجربة مشاهداته من قبل الفلكيين الأوربيين والأمريكيين، تأكّدت نظريّته بأنّ المجرّات القريبة من مجرّتنا في حال الهروب منها، وأن بُعدها عن مجرّتنا في حال تزايد

تدريجيّ. إلا أنّ (نظريّة توسّع الكون)، بشكل عام، تمّت باسم الفلكي الأمريكي هابل Hubble، وأُعْلِنَتْ نهائيًّا في عام ١٩٢٩ ميلادي.

وفي أوائل القرن العشرين دخل العلم إلى عالم القفزات، بعدما أعلن آينشتين Einstein نظريّاته النسبيّة الخاصّة والعامة، وأعلن إدوين هابل Edwin Hubble نظريّة توسّع الكون. ومنذ ذلك الحين، اهتمّ العلماء والفلكيون بعلم المجرّات والثقوب السوداء، التي وضعها آينشتين Einstein نظريًّا على طاولة البحث والنقاش والتحقيق العلميّ.

ومنذ السبعينات من القرن العشرين، بدأ العلم يقفز قفزات عالية، وذلك بفضل التعاون الدولي، وتضافر الجهود على إنجازات خارقة العادة في مجال الطيران في الفضاء، وأجهزة الرؤية الدقيقة المتقدّمة، وآلات التصوير المتطوّرة ، التي تعدّت الأشعّة التي تقع تحت الرؤية البصريّة إلى الأشعّة السينيّة X ray وأشعّة جاما Gamma-ray التي لا تراها العين.

وفي عام ١٩٩٧ ميلادي تمّ اكتشاف عجيب وغريب وهو تسارع توسّع الكون، بمعنى أنّ الكون لا يتوسّع توسّعًا عاديًّا فحسب، بل إنّ سرعة توسّعه تزداد لحظة بعد لحظة. وفي هذا المجال كتبتُ في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) في صفحات ٢٢٩ الى ٢٣١ ما يلي:-

إنّ الفلكيين قد أعلنوا بأنّ اكتشاف (نجم متفجّر قصيّ) قد أكّد أنّ الكون يتوسّع بتسارع - أي أن سرعته تتزايد في كلّ لحظة - وذلك بسبب وجود (الطاقة الداكنة) الغامضة التي تشيع في كلّ مكان من الكون. إنّ هذا النجم - وهو أبعد نجم استطاع البشر اكتشافه على بعد ١١ مليار سنة ضوئيّة عن الأرض - قد كشف حقيقة أنّ الكون في فجر تاريخه كان يتوسّع، ولكن في خطى متباطئة وئيدة - أي بتسارع سلبيّ - وقد بدأ توسّع الكون يتحوّل من التباطؤ إلى التسارع في الفترة الأخيرة، أي قبل حوالي ٦ مليار سنة، وذلك بسبب قوّة صادّة غير معروفة، والتي شرعت في كسب معركتها على الجاذبيّة.

يقول مايكل ترنر Michael Turner في مقابلته الصحفية (٢٠٠١/٤/٣) - حيث أعلن هذا الاكتشاف الهام - بأنّه تطوّر هام جدًّا في فهمنا للكون. وكان الفلكيّون قد طرحوا قبل بضع سنين قضيّة احتمال وجود الكون المتسارع، على أساس الأدلّة الآتية من نوع خاص من (النجوم المتفجّرة القصيّة).

إنّ مثل هذه النجوم تتفجّر دائمًا بنفس اللمعان الذاتيّ التام، ما يتيح للفلكيين محاسبة بُعدها عن الأرض بقياس بهت لمعانها الظاهريّ، بمعنى أنّه كلّما زاد بهت لمعانها زاد بُعدها عن الأرض. بالإضافة إلى ذلك فإنّ الفلكيين باستطاعتهم تحديد نسبة توسّع الكون ومدى تغيّرها مع مرور الزمان، وذلك بقياس تمدّد موجة ضوئها وميلانها إلى الاحمرار، ما يدلّ على سرعة تراجعها وارتدادها عن الأرض.

ولقد كانت المفاجئة الكبرى حينما لاحظ الفلكيون قبل بضع سنين بأنّ الكون لا يتباطأ في توسّعه - كما كانوا يفترضون - بل هو في الحقيقة يتسارع تحت تأثير طاقة غير معروفة.

يقول آدم ريس Adam Riess: إنّ هذا الاكتشاف كان مروّعًا ومفزعًا، بحيث أنّ كثيرًا من الناس كانوا يشكّون ويرتابون فيه، ويتعلّلون بالاحتمالات والبدائل الأخرى، مثل احتمال تأثير غيوم الغبار، التي تتخلّل الفضاء بين الأرض و(النجوم المتفجّرة القصيّة)، على الرؤية، أو احتمال أن لا تكون هذه النجوم بنفس اللمعان الذاتيّ - كما يفترضه الفلكيون - بل إنّ اللمعان يمكن أن يختلف من نجم إلى آخر.

ولوضع هذه الفرضيّات تحت محكّ الفحص والاختبار، انكبّ الفلكيّون على رصد نجوم أبعد وأقصى، ما شكّل تحدّيًا لهم، لأنّه حتى النجوم المتألّقة تبدو باهتة وصعبة الرصد والمراقبة، في هذه المناطق النائية من الكون.

ولكنّ إقبال الحظّ كان حليفهم، وقد ساعد ريس Riess وزملائه لكشف مثل هذا النجم المتفجّر القصيّ. ففي أواخر عام ١٩٩٧ قام الفلكيّ رون جيلي لاند Ron Gilliland باستعمال

تلسكوب القمر الصناعي هابل Hubble Space Telescope لإعادة زيارة منطقة في السماء جدّ نائية، تسمّى حقل هابل العميق Hubble Deep Field (HDF)، والتي رصدها تلسكوب القمر الصناعي هابل Telescope Hubble Space قبل سنتين.

وبعد مقارنته اكتشافه الجديد مع صور حقل هابل العميق (HDF)، اكتشف نقطة نورانيّة لامعة كانت مرئيّة في عام ١٩٩٧، والتي لم توجد في صور عام ١٩٩٥. وكان هو ذلك (النجم المتفجّر القصيّ) ، الذي أشعل منار هذا الاكتشاف المذهل !

وكانت تلك النقطة النورانيّة غير كافية لتحديد بُعد النجم عن الأرض، أو تمدّد موجته الحمراء. ولكنّ ريس Riess اكتشف في عام ٢٠٠٠ بأنّ تلك المنطقة النائية من السماء كانت قد أجريت عليها دراسة متفحّصة، بواسطة كاميرا أمواج ما دون الحمراء المركّب على القمر الصناعي هابل Hubble ، وذلك بعد بضعة أسابيع فقط من رصد ومراقبات جيلي لاند Gilliland.

وهذه الصور التي أُخِذَتْ خلال شهر واحد مكّنت ريس Riess وزملائه من قياس لمعان النجم وتمدّد موجته الحمراء، مؤكّدًا بذلك ارتباط هذا النجم بمجرّة ضخمة بيضاويّة الشكل مرئيّة في صور هابل Hubble ، والتي يزيد بُعدها عن الأرض بأكثر من ١٠ مليار سنة ضوئيّة.

يقول ريس Riess: إنّ تمدّد موجة النور الحمراء لهذه (النجوم المتفجّرة القصيّة) لم تتآلف مع فرضيّات الغبار أو اللمعان المتغيّر، بل إنّها توافقت تمامًا مع فرضيّة الكون المتسارع، والتي أثبتت برائة وحقّانيّة المراقبات السابقة. والآن (٢٠٠١/٤/٣) نحن متأكّدون تمامًا بأنّ الكون اليوم يتسارع في توسّعه.

وأضاف ترنر Turner بأنّ هذا (النجم المتفجّر القصيّ) كان السبب في تجاوز الخطر الذي أوجدته التساؤلات التقليديّة، والتي كانت تسعى جاهدة وراء تحاشي فرضيّة التسارع الكونيّ.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

إنّ الأكوان ليست بحالة واحدة

إنّما هي تتوسّع أحيانًا وتتقلّص أحيانًا أخرى.

وكلّ منها لها دورة معيّنة،

ففي دورة تتوسّع الأكوان

وفي دورة أخرى تتقلّص الأكوان.

إن كوننا الذي نعيش فيه هو واحد من الأكوان، وبالنسبة له فهو الآن في دورته التوسّعيّة (دورة الانبساط) منذ حوالي ١٣,٥ مليار سنة، وقد كان يتوسّع منذ باكورة تاريخه، ولكن في خطى متباطئة وئيدة - أي بتسارع سلبي - وقد بدأ توسّع الكون يتحوّل من التباطؤ إلى التسارع في الفترة الأخيرة، أي قبل حوالي ٦ مليار سنة، وذلك بسبب الطاقة الداكنة، والتي شرعت في كسب معركتها على قوّة الجاذبيّة.

أمّا متى تبدأ دورة تقلّص الكون ؟ فإنّ العلم يقول بأنّ التوسّع الهائل الذي هو قائم الآن لا يستمرّ إلى الأبد ، ولا بدّ من يوم يبدأ فيه الكون بالتقلّص، ويرجع إلى نقطة (الرتق) التي بدأ منها.

وفي كتابي باللغة الإنكليزية: COSMOS REVEALING UNIFIED WILL

ذكرتُ الآتي بالنسبة لبدء دورة تقلّص الكون:-

ثمّ يبدأ الكون في التقلّص إلى أن ينتهي إلى (الرتق)، أو نفس النقطة (أو شيء أصغر بكثير من النقطة)[1] التي بدأ بها الكون الحالي، لتنتهي دورة من الخلق، ثمّ تبدأ دورة أخرى من الخلق أو إعادته، كما ذكر الله تعالى سورة يونس الآية ٤: { إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ }. أما نهاية الكون بمعنى الرجوع إلى (الرتق)، كما كان في بداية الخلق، فإنّ الله جلّ وعلا يصفها في سورة الأنبياء الآية ١٠٤: { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ }.

[1] أو بالضبط كما ذكرتُ في كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) على لسان العالم الفيزيائي الأمريكي الكبير (شوايتزر): إن كلّ ما يوجد الآن في الكون - في كوننا الملاحظ على أقلّ تقدير - كان في يوم من الأيام جميعها مكبوسًا ومضغوطًا في حقل بقطر جزء من مليون جزء من المتر، أو أصغر بكثير ممّا تستطيع العيون رؤيته. وهذا ربّما لاح لنا كشيء صغير جدًّا متناهٍ في الصغر، ولكن يبدو لنا ذلك بسبب منظورنا البشري المحدود لا غير.

دورات التمدّد والتقلّص

أما إذا ربطنا نظريّة الإمام عليه السلام في الانبساط والانقباض بنظريّته الأخرى، وهي وجود العالم الأصغر والعالم الأكبر، فإنّ لكلّ عالم من العوالم دورة في الانبساط ودورة في الانقباض.

فمثلًا شمسنا التي نعيش في كنفها وفي دفئ حرارتها، قدّر عمرها الكلّيّ بحوالي ١٥ مليار سنة، وهي في حالة الانبساط. إلا أنّ عمرها سوف ينتهي، وتبدأ دورة التقلّص تدريجيًّا كما جاء في سورة التكوير الآيات ١ - ٢٩:{ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ * فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }

إنّ كلّ نجم من النجوم يولد ثم ينبسط، وفي آخر عمره يتقلّص ويهرم ويتحوّل إلى (عملاق أحمر)، ثم إلى (قزم أبيض)، وأخيرًا إلى (نجم ميّت). ولكن في انقباض النجوم وتقلّص حياتها وموتها، هناك حياة جديدة تولد، وهي في حالتها تلك، تلعب دور أحسن المصانع في الكون لإنتاج الكيمياء العضويّة، والتي منها يخلق الإنسان والحيوان والنبات وغيرها من الموجودات الحيّة. وفي كتابي (ما هو سرّ الحياة) صفحات ٣٠ إلى ٣٢ ذكرتُ ما يلي:-

إنّ ظهور المركّبات العضويّة المعقّدة أو اللبنات الأساسيّة للحياة - الرائدة للكيماويّات الحيّة - في السحب الكونيّة الكثيفة كان استنتاجًا من التجربة التي أُجْرِيَتْ في المختبرات التي ذكرناها في الفصل السابق.

ولكن هل وجد علماء الفلك مركّبات الكربون في الكون، علمًا بأنّ الحياة تعتمد على قدرة ذرّات الكربون لتشكيل الحلقات.

نعم فلقد ذكرتْ نشرة الطيران في الفضاء الآن Space Flight Now المؤرّخة ٣١ يناير ٢٠٠١ تحت عنوان (الجزيء ذو الحلقات اِكْتُشِفَ لأوّل مرّة حول النجوم) ما فحواه :-

لقد اكتشف العلماء مادة أسيتيلين Acetylene - غاز يستخدم في التلحيم وهو من مركّبات الكربون البسيطة - حول نجوم هرمة، وصلت في هرمها إلى مرحلة تسمّى (العملاق الأحمر)، وهي تساوي حوالي ثلاثة أضعاف الشمس، وتقذف بكمّيات هائلة من الغبار والغازات في بيئتها. والكربون يتولّد نتيجة للانفجارات النوويّة داخل نواة النجوم. ثمّ تحوّلوا إلى نجم أو سديم أقدم من ذلك، والذي يكاد أن يموت، وقد وصل إلى مرحلة تسمّى (القزم الأبيض)، لأنّه محاط بسحب جميلة مليئة بالغاز والغبار المتوهّج.

وكان الاعتقاد السائد بأنّ الغبار المقذوف في مرحلة (العملاق الأحمر) يتعرّض بعد ذلك لغسيل الأشعّة فوق البنفسجيّة القويّة، وللرياح السريعة الآتية من النجم. وهذه الأشعّة والرياح السريعة تكسر مركّبات الكربون ، وتبدأ سلسلة من التفاعلات الكيماويّة الجديدة.

وكانوا يتوقّعون اكتشاف البنزين أو البينزول Benzene في مرحلة (القزم الأبيض). وفعلًا اكتشفوا البنزين C_6H_6، وهو مركّب من ستّ ذرّات من الكربون (مرتّبة على شكل حلقة) وستّ

ذرّات من الهيدروجين. وهذا هو نفس التركيب الذي اكتشفه الكيميائي الألماني كيكولي Kekulé في عام ١٨٦٥.

وفي الصناعة يُستخرج البنزين Benzene من البترول، وهو ذو فوائد كثيرة. ومن المعروف أنّه يُستخرج من البنزين Benzene هيدروكربونات تسمّى أروماتيك aromatic hydrocarbon وهي معروفة برائحتها الخاصة، فلذلك فهي من المكوّنات الأساسيّة لأنواع العطر والشموع. والطريف أنّ هذا النوع من الهيدروكربونات متوفّرة بكثرة في الكون، وهي تتشكّل من الخيوط الطويلة أو المئات من ذرّات الكربون.

نعم لقد اكتشفوها حول النجوم أو السدم الميّتة. إنّ التحوّل من مرحلة (العملاق الأحمر) إلى مرحلة (القزم الأبيض) يستمرّ عدّة قرون، في حين أنّ التحّول من (القزم الأبيض) إلى (النجم الميّت) يستمرّ عدّة آلاف من السنين، وهي لعمري يا نفسُ ! مدّة جدّ قصيرة في مقياس التحوّلات الفلكيّة. وغنيّ عن الذكر أنّ النجوم التي تموت هي أحسن المصانع في الكون لإنتاج الكيمياء العضويّة.

ثمّ إنّ هناك النجوم التي تتقلّص في نهاية حياتها، بحيث تصبح صغيرة جدًّا جدًّا جدًّا، كما أوردنا في مثال الأرض التي يمكنها أن تتحوّل إلى حجم كرة القدم مثلًا، أو أصغر من ذلك بكثير، وذلك بعد تقلّص الفضاء بين الإلكترونات والنواة في الذرّات.

ومثل هذه النجوم لا تفقد وزنها الأصلي، كما ذكرنا في مثال الأرض الآنف الذكر. ومثل هذه المجموعة الكبيرة من النجوم المكبوسة في آخر عمرها، يمكن أن تتحوّل إلى (ثقوب سوداء)، والتي تكبر تدريجيًّا بابتلاع المواد بقوّة جاذبيّتها القويّة جدًّا جدًّا جدًّا.

نهاية المجرّات

ثمّ إنّ هناك المجرّات التي تولد ثم تتوسّع - في دورة من الانبساط - ثمّ لا بدّ لها من نهاية، في دورة من الانقباض، ولو بعد آلاف المليارات من السنين. ولا يخفى أنّ في هذا الموت، تكمن الحياة وتتولّد أعداد هائلة من النجوم الجديدة.

وإذا كانت الأرض والكواكب والشمس - التي عمرها الكلّيّ هو في حدود ١٥ مليار سنة - تنتمي إلى العالم الأصغر، فلا بدّ أن نجوم ومجرّات الكازار Quasar وثقوبها السوداء - التي عمرها في حدود ألف مليار سنة أو أزيد - تنتمي إلى العالم الأكبر.

وأسرد فيما يلي قصّة نهاية مجرّتين في تصادم عظيم جدًّا من كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) صفحات ٤٠٩ إلى ٤١١:-

إنّ صورة جديدة لتصادم مجرّتين، يُعتقد أنّهما تشبهان مجرّتنا، تُظهر علامات مبكّرة لتشكّل إحدى الثقوب السوداء العملاقة في الكون. إنّ علماء المختبر الفضائي جاندرا Chandra يقولون: إنّ هذه الصورة هي أحسن صورة بالأشعّة السينيّة أُخِذَتْ حتى الآن (٢٠٠٢/٤/٢٣) عن عمليّة دمج مجرّتين في الفضاء.

إنّ هذه الصورة تُظهر مجرّتين تبعدان حوالي ٢٥٠ مليون سنة ضوئيّة عن بعضهما البعض، وهما في معمعان عمليّة ارتطام رأسيّ، والتي استمرّت منذ حوالي عشرة ملايين سنة.

يقول الباحثون إنّ عمليّة التصادم هذه ربّما قد سبّبت ظهور أعداد هائلة من النجوم الجديدة، وأنّها قد أرسلت أمواج الصدمة تدمدم عبر الفضاء فيما بين المجرّات، وفي نهاية المطاف، سوف تؤدّي إلى تكوّن ثقب أسود عملاق في مركز المجرّة الجديدة بعد الدمج.

يقول ديويد كليمنتس David Clements: إنّ مراقبات جاندرا Chandra تُظهر بأنّ الأشياء سوف تصبح مشوّشة، وإنّ الفوضى سوف تعمّ المنطقة برمّتها، حينما تصطدمان المجرّتان ببعضهما البعض بسرعتهما الكاملة. إنّ الحادثة المتوقّعة سوف تؤثّر على كلّ شيء، من تكوّن الثقوب السوداء الضخمة إلى تشتّت وتبدّد العناصر الثقيلة في الكون.

إنّ الفلكيين يعتقدون بأنّ مجرّات كثيرة - ومنها مجرّتنا - ربما سوف تواجه تصادمات مشابهة في وقت ما من حياتها. إنّ ما اكتشفناه يمكن أن يكون نموذجًا للظروف التي ربما عاشها الكون في فجر عمره، حينما تكوّنت المجرّات الضخمة والثقوب السوداء العملاقة بسبب التصادمات العديدة بين المجرّات. وهذا النموذج هو أيضًا للمجرّة النيّرة المضيئة جدًّا، والتي تقذف إشعاعات بمقدار مائة أضعاف ما تقذفها مجرّتنا.

إنّ صورة جاندرا Chandra تُظهر منطقة مركزيّة لامعة في وسط غيوم متوهّجة، تصل حرارتها إلى ملايين درجة مئويّة. وتتدفّق من المجرّة رياح قويّة جدًّا محمّصة، بسرعة مئات الآلاف من الأميال في الساعة. ويُعتقد أنّها ناتجة عن نشاط انفجاريّ هائل، والذي ولّدته عمليّة تكوّن مئات الملايين من النجوم الجديدة.

وبعيدًا جدًّا من هذه المنطقة وعلى بُعد ٧٥٠٠٠ سنة ضوئيّة، توجد كميّات ضخمة من الغازات المحمّصة، والتي ربما تكون بقايا المجرّة، وقد قُذفت إلى الفضاء فيما بين المجرّات، تحت وطأة التصادم المبكرة.

إنّ مراقبات جاندرا Chandra سمحت للفلكيين بتعيين مصدر الأشعّة السينيّة بدقّة متناهية في نواة إحدى المجرّات ما قبل الاندماج. وقاموا أيضًا بتعيين مصدر آخر، بيد أنّه باهت، ربّما يكون نواة بقايا مجرّة أخرى. إنّ المصدرين للأشعّة السينيّة ربّما يكونان ثقبين أسودين، ويُعتقد أنّهما يتقيّأان الأشعّة السينيّة من خارج (أفق التراكمات) ومن المواد المحمّصة جدًّا، والتي تدور بشكل لولبيّ في اتجاههما.

إنّ هذين المصدرين مضيئان ونيّران أكثر من الثقوب السوداء النجميّة، والتي يزن كلّ واحد منها بضع شموس من الناحية النمطيّة، بيد أنّهما ضعيفان نسبيًّا مقارنة مع الثقوب السوداء العملاقة.

يقول الفلكيون إنّ النور الغير العادي للمجرّة التي اكتشفوها ربّما هو بسبب التكرار السريع في تكوّن النجوم الجديدة. وكيفما كان، فإنّ توازن القوى ربّما يتغيّر في خلال مئات الملايين من السنين القادمة.

يقول العلماء إنّ الثقبين الأسودين ربّما سوف يندمجان ويكوّنان ثقبًا أسودًا عملاقًا مركزيًّا، وأنّ هذا التغيّر ربما يتسبّب في سقوط كمّيّات كبيرة جدًّا من الغازات إلى الثقب الأسود وفي تكوّن مصدر للطاقة تفوق تلك التي تأتي من تكوّن النجوم.

يقول جوناتان مك دويل Jonathan McDowell: إنّ التركيز الغير العاديّ لمصادر الأشعّة السينيّة، في مركز المجرّة التي اكتشفوها، تشير إلى أنّنا ربّما نشاهد الآن (٢٠٠٢/٤/٢٣) المراحل المبكرة من تكوّن ثقب أسود عملاق ونواة مجرّة نشطة للغاية.

نهاية الثقوب السوداء

ثمّ إنّ هناك الثقوب السوداء Black Holes التي تولد ثم تتوسّع – في دورة من الانبساط – ثمّ لا بدّ لها من نهاية – في دورة من الانقباض - ولو بعد آلاف المليارات من السنين. ولا يخفى أنّ في هذا الموت تكمن الحياة وتتولّد طاقة عظيمة من الأشعّة الكونيّة.

وإذا كانت الأرض والكواكب والشمس – التي عمرها الكلّي هو في حدود ١٥ مليار سنة - تنتمي إلى العالم الأصغر، فلا بدّ أنّ نجوم ومجرّات الكازار Quasar وثقوبها السوداء – التي عمرها في حدود ألف مليار سنة أو أزيد - تنتمي إلى العالم الأكبر.

وأسرد فيما يلي قصّة عن الثقوب السوداء المهترئة، وهي منبع الأشعّة الكونيّة ذات طاقة عالية جدًّا ونادرة للغاية، من كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) صفحات ٤٨١ إلى ٤٨٣:-

إنّ الباحثين قد وجدوا مصدرًا محتملًا للأشعّة الكونيّة. ففي دراسة أجروها حديثًا (٢٠٠٢/٤/٢٢)، تبيّن أنّ الثقوب السوداء التي تدور على محورها بسرعة فائقة، ربّما تقوم بعمل بطاريّات كونيّة جبّارة، وتطلق جزيئات عبر النظام الكوني بسرعة تقارب سرعة الضوء.

إنّ الدراسة تضمّنت أربع مجرّات طاعنة في السن، والتي كانت من المشاعل اللامعة في الكون ، بيد أنّها الآن قد اهترأت قليلًا. إنّ هذه المجرّات القصيّة المتألّقة في سابق الأزمان - ما يسمّى (الكازار Quasar) - ربّما تُساعد على حلّ سرّ الأشعّة الكونيّة، والتي لم يعرف العلماء مصدرها منذ زمن طويل.

إنّ العلماء يقولون إنّ المجرّات الأربعة تقع فوق نجم الدبّ الأكبر، ويمكن مشاهدتها بالتلسكوبات العادية. إنّ كلّ مجرّة منها تحوي ثقبًا أسودًا يزن مائة مليون شمس على الأقل، والذي يستطيع أن يُطلق جزيئات ذرّيّة بسرعة فائقة.

إنّ مجرّات (الكازار Quasar) هي ألمع وأزهر من المجرّات العادية بآلاف الأضعاف. إنّها تستمدّ طاقتها من ثقب أسود، الذي يزدرد كمّيّات فيّاضة من الغازات، والتي تحمّص وتسخّن وتتسارع إلى سرعات فائقة، وتصدر الأشعّة السينيّة وأشكالًا أخرى من الإشعاعات قبل أن تُبتلع ابتلاعًا من قبل الثقب الأسود.

في حالة المجرّات التي تحمل بقايا وفضلات الكازار Quasar، فإنّ نواة الثقب الأسود لا تكون منبعًا قويًّا للإشعاعات. يقول (تورس): إنّ بعضًا من بقايا الكازار Quasar - وهي المجرّات القصيّة المتألّقة - ربّما لا تكون ميّتة بالتمام والكمال، وتبقى نشيطة شيئًا ما في السنين الأخيرة من حياتها.

ولأوّل مرّة (٢٠٠٢/٤/٢٢) نجد إشارة ما إلى العلاقة المحتملة بين الأشعّة الكونيّة، ومن أيّ جهة تصل إلينا، وبين أماكن معيّنة في السماء، حيث تسكن المجرّات النائمة، وفي مراكزها ثقوب سوداء عملاقة.

إنّ الأشعّة الكونيّة تمثّل إحدى الأسرار الكبرى في الفيزياء الفلكيّة. إنّ كلّ شعاع كونيّ - وهو جوهريًّا جزيء من الذرّة، مثل البروتون، يتحرّك بسرعة تقارب سرعة الضوء - يرصّ في ذاته طاقة تفوق أربعين مليون ترليون (فولت الكترون) - والتي هي وحدة تساوي حوالي طاقة رمي كرة مثلًا.

يقول العلماء إنّ مصدر الأشعّة الكونيّة يجب أن يكون بُعده عن الأرض في حدود مئتين مليون سنة ضوئيّة. لأنّ الأشعّة الكونيّة ستفقد طاقتها إذا كان بُعد المصدر عنّا أكثر من ذلك، علمًا بأنّها يجب أن تسافر عبر ظلمات إشعاعات الأمواج المجهريّة الكونيّة التي تملأ الكون.

وحتى الآن (٢٠٠٢/٤/٢٢) لم يستطع أحد أن يعيّن ما هي الأجسام التي تولّد مثل هذه الجزيئات المليئة بالطاقة، في إطار حدود مسافة مئتين مليون سنة ضوئيّة.

يقول (بولت): إنّ الحقيقة ذاتها التي تقول بأنّ هذه المجرّات الأربعة الماردة البيضاويّة الشكل هي في الظاهر ساكنة وعديمة الحركة، تؤهّلها لأن تكون مرشّحات قابلة للحياة لتوليد الأشعّة الكونيّة ذات الطاقة العالية. لأنّه في حالة الكازار Quasar النشطة، فإنّ الإشعاعات المبلّلة الصادرة عنها، ترطّب تسارع الأشعّة الكونيّة، ومن ثمّ تصفّي معظم الطاقة الكامنة فيها.

إنّ (تورس) و (بولت) يسلّمان بالأمر الواقع بأنّهما لم يستطيعا التأكّد من أنّ هذه الثقوب السوداء الأربعة تدور حول محورها أم لا، وهذا من المستلزمات الأساسيّة للمولّد الكهربيّ، كي يدفع بالأشعّة الكونيّة إلى التسارع. مع هذا فإنّ العلماء يقولون بأنّ ذلك ممكن.

هناك نظريّة سائدة تقول بأنّ الثقوب السوداء العملاقة تدور حول محورها، كلّما تكاثرت المواد حولها وتراكمت وتزايدت ودارت بسرعة فلكيّة حولها، لأنّ الثقوب السوداء تمتصّ الطاقة المداريّة من هذه المواد.

إنّ الأشعّة الكونيّة ذات الطاقة العالية نادرة جدًّا جدًّا جدًّا، وهي تصدم جوّ الأرض بنسبة شعاع كونيّ واحد لكلّ كيلومتر مربّع، في كلّ عقد، أي في كلّ عشر سنوات.

تكوّن النجوم والمجرّات

إنّ عمليّة الخلق وتكوّن النجوم والمجرّات مستمرّة في الوجود، وذلك بفضل قانون الانبساط والانقباض الذي توصّل إليه الإمام جعفر الصادق عليه السلام قبل ١٣٠٠ عام. وفيما يلي ألمّح إلى دور الثقوب السوداء في هذا الخلق من كتابي (وحدة الإرادة في الوجود) صفحات ٤٦١ إلى ٤٦٣ كالآتي:-

إنّ الرصد والمراقبات الجديدة تصوّر وترسم الثقوب السوداء على أنّها خلّاقة، وفي نفس الوقت مدمّرة. إنّ التصوّر السائد الآن (٢٠٠٥/٢/٧) عن الثقوب السوداء، يسترجع إلى الأذهان صورًا عن الغازات والنجوم وحتى الأنوار، وهي تُبتلع وتُزدرد من قبلها.

ولأنّ النور يُبتلع، فلا يكون هناك انعكاس عن النور، فلهذا سمّيت الثقوب سوداء. ولكن حينما تقتات الثقوب السوداء، تخلق نوافير وفوّارات وشآبيب فعّالة غزيرة من الغازات، وهي تتسابق بسرعة الضوء تقريبًا إلى الفضاء الخارجي.

وهذه النوافير والفوّارات والشآبيب تتكهرب وتحدث فيها رجّات كهربائيّة قويّة مشتعلة، والتي تطلق عمليّة كونيّة خلّاقة، تخلق من خلالها النجوم الجديدة. إنّ بروجل Broglie و ستيف كروفت Steve Kroft قد درسا إحدى هذه الفوّارات، وهي تتخلّل منطقة محيّرة، تنشط فيها بشدّة عمليّة تكوّن النجوم. ويقولان إنّ هذه النوافير والفوّارات والشآبيب تتقطّع بشكل شرائح وتتخلّل المنطقة، متسبّبة في سقوط الغازات المكتظّة وتدهورها، ما يكون سببًا ومبشّرًا بولادة نجوم جديدة.

إنّ هذا الاكتشاف يدعم الأدلّة المتنامية على أنّ الثقوب السوداء تلعب دورًا كاملًا ومكمّلًا في تكوّن المجرّات.

إنّ الأسطورة قد تحوّلت إلى وقائع ! يقول فان بروجل Broglie: قبل عشرين عامًا (أي في عام ١٩٨٥) كان هذا النوع من التفكير يُعتبر أسطورة علميّة، ولكنّه اليوم يعيد العدالة إلى الثقوب السوداء، لأنّنا كنّا نفكّر عنها – بشكل سلبيّ - بأنّها تبتلع كلّ شيء، بيد أنّها تنبعث منها النوافير والفوّارات والشآبيب من الغازات، والتي تخلق حياة جديدة، بتسبّبها في رزوح الغيوم وسقوطها تحت وطأتها، ثم انهيارها وتدهورها، ومن ثمّ ولادة نجوم جديدة.

إنّ الثقب الأسود Black Hole موضوع البحث يقوم بعمل مولّد كهربيّ ضخم يدفع بنقاط من المادة المحمّصة إلى التسارع ، ويدلعها[1] في سرعة فائقة إلى قدّام محور دورانه.

إنّ هذه النوافير والفوّارات والشآبيب غير مرئيّة، بيد أنّ الفلكيين يكتشفونها بتلسكوبات صوتية (تلسكوبات الراديو Radio Telescopes). يقول كروفت Kroft: إنّ النوافير والفوّارات والشآبيب - التي يُسمع صوتها فقط ولا تُرى - تحرث في غيوم الغاز القريبة منها حرثًا، وإنّ سرعتها التي تفوق سرعة الصوت أضعافًا مضاعفة تُحدث أمواج الصدمة، والتي تكبس الغاز وتحمّصه وتسخّنه. وإنّ الغازات في الغيوم تتكهرب، بمعنى أنّ الذرّات تفقد إلكتروناتها.

وبعد اجتياز الصدمة والرجّة والهزّة فإنّ (الأيونات) - أي الذّرّات بعد فقدانها الإلكترونات - تتركّب من جديد محدثةً الإشعاعات، والتي تنقل الطاقة خارج الغيوم. حينذاك تبرد الغيوم وتتقلّص أكثر وأكثر. وحينما تصل عقدة من الغاز كثافة معيّنة، يتدهور الغاز وينهار، بمعنى أنّ غيوم الغاز ترزح تحت وطأة الغازات الكثيفة المكتظّة، ثمّ تنهار وتتدهور، ونتيجة لذلك تتشكّل النجوم.

إنّه ليس واضحًا تمامًا ما تلعبه الغيوم الباردة من دور في بناء المجرّات. إنّ النجوم يمكنها أن تتشكّل من دون وجود نوافير وفوّارات وشآبيب صوتيّة لإيقاع الصدمة على الغيوم. فمثلًا النجوم المتفجّرة سوبر نوفا Supernova يمكنها أن تتسبّب في تشكّل النجوم الجديدة.

---

[1] كما يدلع الإنسان لسانه أي يخرجه.

يقول كروفت Kroft: إنّ الدراسات الأخرى تُظهر بأنّ الثقوب السوداء تلعب دورًا هامًا في تكون المجرّات. إنّ تكوّن ثقوب سوداء ضخمة عامل مهمّ لتشكّل مجرّات جديدة.

إنّ معظم المجرّات الكبيرة لها ثقب أسود في مركزها، والذي طالما تصدر عنه نوافير وفوّارات وشآبيب من مواد في غاية السرعة.

إنّ الباحثين يعتقدون الآن (٢٠٠٥/٢/٧) بأنّ الكون في فجر عمره، أي خلال بلايين السنين الأولى بعد الانفجار الكبير، حينما كانت الأشياء لا زالت مكتظّة وفوضويّة، فإنّ نوافير وفوّارات وشآبيب الثقب الأسود ربما سبّبت ولادة نجوم جديدة.

يقول فان بروجل Broglie: إنّ هذه العمليّة ربّما تكون مهمّة في باكورة عمر الكون، لأنّ المجرّات كانت لا تزال صغيرة، وكانت هناك كميات كبيرة من غاز الهيدروجين ، بيد أنّ النجوم كانت قليلة، وكانت الثقوب السوداء أكثر نشاطًا.

جوهر النفس

ويواصل نبيّ الله إدريس عليه السلام في الفصل الأول:

ثمّ التالي لجرم الفلك الذي هو أقصى الأجرام كلّها هو جوهر النفس المعطية الأفلاك[1] الحركة النظاميّة والأنوار الصافية الشريفة التي هي ألطف من سائر ما أحاطت به من الأشياء واحتوت عليه. وذلك أنّ سائر ما تحتوي عليه أجسامٌ وهي لا جسم البتّة، وأنّ سائر الأشياء مما دونها لا حياة له إلّا بها، وأنّها ذات الفكر والإرادة والتمييز[2] : فما واصلته أظهرت فيه ذاتها على حقيقة قبوله فصار حيًّا، وما لم تواصله لم يوجد له فكر ولا إرادة ولا حركة ولا تمييز. وما فقد شيئًا من[3] هذه الأشياء فهو ميّت لا محالة.

هناك يا نفسُ ! تحت أفق الأزليّ تبارك وتعالى آلاف الآلاف من الملائكة الكرام، وهم عباد مكرّمون، يأتمرون بأمر الله جلّ وعلا وينتهون بنهيه، وهم على قسمين: جوهر النفس والعقل الذي هو عالم الجبروت (والذي سنشرحه في الفصل التالي).

أمّا جوهر النفس فهي ألطف من سائر ما أحاطت به من الأشياء واحتوت عليه، لأنّها لا جسم، وسائر ما تحتوي عليه أجسام. إنّ سائر الأشياء ممّا دونها لا حياة لها إلا بها.

---

[1] فلك الأفلاك (في بعض النسخ).

[2] وأنّها ذات الفكر والإرادة والتمييز والحركة (في بعض النسخ).

[3] وما فقد منه هذه الأشياء (في بعض النسخ).

والأجسام إمّا مرئيّة بالعين المجرّدة أو غير مرئيّة، اللّهم إلّا أن تُستعمل الآلات والأجهزة الدقيقة للكشف عنها، من أمثال الأشعّة ما دون الحمراء وما فوق البنفسجيّة والأشعّة السينيّة وأشعّة جاما وبيتا والأشعّة الكونيّة وغيرها، أو الفيروسات والميكروبات والجراثيم والخلايا وغيرها[1].

---

[1] لقد ذكرتُ في كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) تحت فصل (موجودات حيّة في بدنك أكثر من رمال الصحراء) نبذة عن هذه الأحياء الصغيرة جدًّا المتناهية في الصغر، في سياق محاورته مع أبي شاكر ، كالتالي:-

موجودات حيّة في بدنك أكثر من رمال الصحراء

والآن أردّ على القسم الأصلي من ملاحظاتك. لقد قلت إني أقصّ الحكايات الخرافيّة، وأدعو الناس إلى عبادة الله الذي هو غير قابل للرؤية.

يا أبا شاكر أنت الذي تنكر وجود الله الغير المرئي، هل تشاهد باطنك ؟

أبو شاكر:- كلا.

الإمام عليه السلام:- لو شاهدتَ باطنكَ لما قلت إنّ الله الذي لا يُرى خرافة.

أبو شاكر:- ما هو ارتباط مشاهدة الباطن بموضوع عبادة الله الذي هو غير موجود ؟

الإمام عليه السلام:- أنتَ تقول إنّ ما لا يُرى ولا يُسمع له صوت، ولا يمكن لمسه أو شمّه أو تذوّقه، غير موجود، ولا يستحقّ العبادة. أليس كذلك ؟

أبو شاكر:- نعم هو كذلك.

الإمام عليه السلام:- هل تسمع صوت حركة الدم في بدنك ؟

أبو شاكر:- أنا لا أسمع صوت الدم، وهل الدم له حركة في البدن ؟

الإمام عليه السلام:- نعم ! وهل تشمّ رائحة دمك وهو يجري في بدنك ؟

أبو شاكر:- كلا.

الإمام عليه السلام: يا أبا شاكر إنّ الدم يدور في بدنك دورة كاملة في عدّة دقائق. ولو توقّف الدم عن حركته لعدّة دقائق لسوف تموت. وهل شاهدتَ حركة دمك في بدنك ؟

أبو شاكر:- كلا ! ولا أستطيع أن أقبل بأنّ الدم يتحرّك في بدني.

الإمام عليه السلام:- الجهل هو الذي يمنعك من التصديق بأنّ الدم يجري في عروقك. وهذا الجهل هو الذي يمنعك من التصديق بالله الواحد الغير المرئي.

هل تعرف أنّ هناك موجودات خلقها الله وجعلها في بدنك، وأنتَ حيّ ترزق بفضلها وبفضل عملها الدؤوب في بدنك ؟

أبو شاكر:- كلا.

الإمام عليه السلام:- طبعًا أنتَ غير مطّلع عليها، لأنّك تعوّل على مشاهداتكَ فقط وتقول: ما لا تراه غير موجود. ولو كنتَ مستعدًّا لتحصيل العلم، كي ينقشع عنك الجهل، لحصل لكَ المعرفة:

بأنّ هناك في وجودك عددًا ضخمًا جدًّا جدًّا جدًّا من الموجودات الحيّة هي بعدد رمال الصحراء. إنّها تولد في بدنك وتنمو وتتكاثر ثمّ تموت بعد فترة. بيد أنّك لا تراها ولا تسمع صوتها ولا تلمسها ولا تشمّ رائحتها ولا تدري ما طعمها في ذائقتك. يا أبا شاكر اعلم أنّ الموجودات الحيّة، التي تعيش في بدنك الآن وتموت، ليس فقط إنّها أكثر من جميع البشر القاطنين في هذا العالم، بل أكثر من رمال الصحراء. هذه الموجودات الحيّة تُخلق في بدنك وتنمو هناك ثم تموت، كلّ ذلك كي تبقى حيًّا وتعيش في هذه الحياة. وإذا توقّفت مخلوقات الله الحيّة، التي أودعها الله في بدنك، عن ممارسة وظائفها في بدنك، فإنّك سوف تموت.

ولأنّكَ جاهل فإنّك تنكر وجودها وتقول: إنّي لا أستطيع أن أقبل بأنّ لها وجود، لأنّي لا أراها ولا أسمع صوتها. إنّكَ تتصوّر أنّ قوّة العقل والفهم عندكَ هي التي تحفزّك على إنكار وجود هذه المخلوقات الحيّة في بدنك، في حين أنّها قوّة الجهل والبلاهة وقلّة العقل وقلّة الفهم عندك. إنّ جهلك هو الذي يحفزّك على إنكار حركة الدم في بدنك، وعلى إنكار وجود موجودات حيّة في جسدك، ومع الأسف هناك في العالم من لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، ويتصوّرون جهلهم علمًا وبلاهتهم عقلًا. **ولقد قالوا: من عرف نفسه فقد عرف ربّه.**

يا أبا شاكر لو عرفتَ نفسكَ، وعرفتَ ماذا يجري فيك، وكم من عدد ضخم من الموجودات الحيّة تأتي إلى الوجود في بدنك وتنمو وتموت، كي تبقى حيًّا وتستمرّ في حياتك، لما قلتَ: لأنّي لا أرى الله ولا أسمع صوته ولا ألمسه، فإنّي لا أقبل وجوده، وأعتقد بأنّ الله الواحد الغير المرئيّ خرافة ليس أكثر.

وهي القوّة التي تعطي الأفلاك الحركة النظاميّة والأنوار الصافية الشريفة. وهي القوّة التي تعطي المخلوقات من الجماد[1] والنبات والحيوان والإنسان الحياة والحركة، وحتى الفكر والإرادة

[1] هناك حياة وحركة في الجماد والنبات ذكرتُها في كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) تحت فصل (حركة الحياة في الجماد والنبات) في سياق محاورته عليه السلام مع أبي شاكر كالتالي:-

حركة الحياة في الجماد والنبات

يا أبا شاكر: هل ترى هذا الحجر في قاعدة هذه الشرفة ؟ إنّكَ ترى الحجر جامدًا لا حركة له، لأنّ عينكَ لا ترى حركته. إنّ في هذا الحجر حركات، يترائى إزائها حركاتنا، نحن الذين اجتمعنا هنا، وكأنّها سكون. إنّها حقيقة علميّة، لكنّك لا تقبلها، وتقول إنّ هذا الكلام خرافة ليس إلّا، وأيضًا تتصوّر نفسكَ عاقلًا لا يقبل الخرافات. بيد أنّك لا تستطيع أن تفهم الحركة التي في هذا الحجر، لأنّكَ جاهل، وربّما بزغ لنا يوم تتوسّع فيه العلوم وتتطوّر، بحيث أنّ الناس يستطيعون مشاهدة هذه الحركة في باطن هذا الحجر.

يا أبا شاكر لقد قلتَ: إنّ كلّ شيء في هذا العالم يأتي إلى الوجود بذاته من دون سبب، وأنّه لا وجود لخالق. لقد قلتَ إنّ العلف في الصحراء يخضرّ من ذاته، من دون سبب يُذكر، وليس هناك أحد يُنبت وينمي هذا النبات.

ولكن فكّر مليًّا: إنّ العلف في الصحراء لا يَنبت، إذا لم يكن هناك بذور. وإذا كان هناك بذور العلف، فإنّه لا يَنبت، إذا لم يكن هناك مطر، ولم ترطب الأرض وتتشبّع بالماء. والسماء لا تمطر بذاتها من دون سبب. بل لا بدّ من إيجاد أبخرة تتولّد من الأرض، وتصعد بشكل سحاب ينتشر في الفضاء، ثمّ ينزل المطر، لا في أي وقت، بل في فصول معيّنة. وإذا لم تمطر السماء، لم ترطب الأرض ولم تتشبّع بالماء، حتى تصل الرطوبة إلى بذور العلف، كي تنشقّ البذور وتنفلق وتخضرّ، وتمتدّ جذور العلف في باطن الأرض، حتى يكون بالإمكان في آخر المطاف أن يخضرّ العلف على وجه الصحراء.

يا أبا شاكر ضع عشرة أنواع من العلف في ظرف مسدود الغطاء، ثمّ صبّ الماء في الظرف، وانظر هل تنبت الجذور والأوراق ؟ إنّ العلف لا ينبت ولا يخضرّ برطوبة الماء فقط، بل لا بدّ من الهواء. وفي الهواء خاصيّة تنبت النبات وتتسبّب في نموّه.

يا أبا شاكر بالإمكان إيجاد العلف وإنباته في مكان حار، أو بيت حار في البرد القارس في الشتاء، بشرط أن يكون هناك هواء. وبالإمكان إيجاد أنواع مختلفة من الفواكه وإنباتها في مكان حار، أو

بيت حار في البرد القارس في الشتاء، بشرط أن يكون هناك هواء. ولو لم يكن هواء، لم ينبت العلف في الصحراء، ولم تنبت الفواكه في المكان الحار أو البيت الحار، في برد الشتاء القارس، ولم يبق لا إنسان ولا حيوان على وجه الأرض.

يا أبا شاكر إنّكَ لا ترى الهواء، على الرغم من أنّ الهواء عامل أساسيّ في حياتك وفي حياة سائر أفراد البشر. وفقط حين تهبّ الريح تحسّ بالهواء. هل بإمكانكَ أن تنكر وجود الهواء ؟

وهل بإمكانك أن تنكر هذه الحقيقة بأنّ العلف، كي ينبت في الصحراء، لا بدّ له من عوامل متعدّدة من التربة والمطر والهواء والفصل المناسب، كي ينمو العلف، ولا بدّ من قوّة إدارة منظّمة مدبّرة، تنظّم كلّ هذه العوامل، حتى تتناسق وتتناغم جميعًا في نظام متّسق رائع لإيجاد الأثر المطلوب، وأنّ هذه القوّة المنظّمة المدبّرة ما هو إلا الله.

ولو كنتَ من أصحاب العلم، لعرفتَ بأنّ الحكمة لا تقبل أن يأتي أيّ شيء إلى الوجود بذاته من دون سبب، وأنّ كلّ شيء يأتي إلى الوجود، لا بدّ له من خالق، سواء كان هذا الشيء جمادًا أو نباتًا أو حيوانًا أو إنسانًا. ولو كنتَ من أهل العلم، لعرفتَ أنّ من بين الحكماء في المدارس المختلفة، لا يوجد حتى حكيم واحد ينكر وجود الله.

ربّما تصوّر البعض أنّ بعض الحكماء لا يعتقدون بالخالق، وسببه التسمية لا غير، فلربما سمّوا الله بغير اسمه. وإذا وجد حكيم أنكر وجود الخالق، فإنّه من ناحية الحكمة، معتقد بمبدأ، ولا يمكنه الاستغناء عن العقيدة بالمبدأ.

يا أبا شاكر إنّ إنكار الخالق ناشئ عن الجهل لا العقل. لو أنّ الإنسان العاقل نظر إلى نظام بدنه مليًّا، لأدركَ بأنّ هذا النظام البديع له ناظم، والذي أوجد هذا العالم هو الناظم، ولا يستطيع شيء أن يشوّش أو يخرّب نظام العالم غير الناظم نفسه.

يا أبا شاكر لقد قلتَ لي إنّنا - أنا وأنتَ كلانا - نصنع ربّنا، وتقصد بذلك أنّنا نحن نوجد ربّنا. والفرق بيننا هو أنّك تصنع ربّك من الخشب، بآلات النجارة وأدواتها، أو تصنع ربّك من الحجر، وتبري الأحجار وتقلّمها وتصقلها، بآلات الحكّ والخرط، بيد أنّني أوجد ربّي من أفكاري.

هناك فرق كبير بين ربّك وربي، وهو أنّ ربّكَ لم يكن قبل أن تأخذ الآلات والأدوات بيديك وتبدأ بالعمل، بيد أنّ ربي كان قبل أن أفكّر. أنا لم أصنع ربّي ولم أخرجه من أفكاري. بيد أنّكَ، كما تقول، صنعتَ ربّكَ بيديكَ، لأنّ ربّكَ لم يكن قبل أن تصنعه، اللهم إلّا في شكل الأخشاب والأحجار. أنا

والتمييز، كلّا حسب قدره، لأنّها ذات الفكر والإرادة والتمييز. فما واصلته أظهرت فيه ذاتها فصار حيًّا، وما لم تواصله لم يوجد له فكر ولا إرادة ولا حركة ولا تمييز، وما فقد شيئًا من هذه الأشياء فهو لا محالة ميّت. وكلّ ذلك بأمر من الله تبارك وتعالى، لا تتعدّى الملائكة الكرام الحدود والوظائف التي رسمها الله تعالى لها.

وحتى شؤوننا نحن البشر، وكلّ ما يحدث لنا، مكتوبٌ في اللوح المحفوظ من قَبل أن تُخلق السموات والأرض.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة فصلت الآيات ٩ إلى ١٢: { قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }.

هو الذي خلق السموات والأرض في ستّة أيام، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة ق الآية٣٨: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ }.

لكنّه خلق اللوح المحفوظ في الأربعة الأيام الأولى، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام، وكانت السماء والأرض حينها دخانًا، وبعد مضيّ أربعة أيام، قال الله تعالى لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}. ويقول تعالى في سورة فصلت الآية ٩: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} .

لم أُخرج ربّي من أفكاري، لأنّ ربّي كان قبل فكري. وما فعلته وأفعله، هو أنّي أحاول أن أعرف ربّي بفكري، بشكل أحسن، وأن أفهم عظمته أكثر وأكثر.

وكلّ هذه العمليّة حدثت في اليومين الأخيرين. لكنّ اللوح المحفوظ التي بارك الله تعالى فيها وقدّر فيها أقواتها حدثت في الأربعة الأيام الأولى.

ويذكر القرآن الكريم أيضًا بأنّ الله تعالى أجاب دعواتنا ـ التي ندعوها اليوم ـ قبل خلق السموات والأرض، حين خلق اللوح المحفوظ، وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها، في الأيام الأربعة الأولى من تشكّل الكون، حينما كانت السماء والأرض دخانًا، بشكل أوامر مكتوبة إلى الملائكة. وبعد ذلك أمر الله تعالى بخلق السموات والأرض. ودامت عمليّة تكوّن السموات والأرض يومين. وأنّ الله يمحو ما يشاء وَيُثْبِتُ وعنده أمّ الكتاب. وما الملائكة إلا عباد مكرّمون يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه.

ولتلقّي أوامر الله تعالى فإنّ الملائكة تسافر إلى اللوح المحفوظ ذهابًا وإيابًا. ويذكر القرآن الكريم في سورة السجدة الآية ٥: { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، واصفًا وشارحًا كيف أنّ الملائكة تسافر ذهابًا وإيابًا إلى اللوح المحفوظ.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة المعارج الآية ٤: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ }. بمعنى أنّ الملائكة والروح تعرج إلى اللوح المحفوظ.

إنّ الملائكة في هذه الآية الكريمة تجرّب يومًا واحدًا ما يجرّبه البشر في خمسين ألف سنة. إنّه مقارنة الزمان بالزمان، وليس مقارنة الزمان بالمسافة، كما في الآية القمريّة السالفة الذكر.

يقول الله تعالى في سورة الأنعام الآية ٥٩: { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }. إنّ القرآن الكريم يذكر بأنّه ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين.

إنّ الله تعالى يذكر بكلّ وضوح بأنّ كلّ هذه الأحداث ـ حتى سقوط الورقة والحبّة في ظلمات الأرض ـ كلّها مسجّلة ومدوّنة مسبقًا في اللوح المحفوظ أو الكتاب المبين، وأنّ كلّ الأحداث صغيرها وكبيرها منقوشة في اللوح المحفوظ، حتى قبل خلق الأرض.

العقل عالم الجبروت

ويواصل نبيّ الله إدريس عليه السلام في آخر الفصل الأول:

> والشيء التالي لجوهر النفس والعالي عليها والمحيط بها هو العقل. وبحقٍّ إنّه ألطف الموجودات وأشرفها وأعلاها منزلةً، وإنّه المرتّب تحت أفق الأزليّ تبارك وتعالى والآخذ عنه بغير وسيط، والمفيد جميع ما تحته الشرفَ والنورَ والحياة، وأنّه الترجمان الأعظم والحاجب الأقرب. فتأمّلي يا نفسُ هذا الترتيب وتيقّنيه واعتقديه فإنّه هيئة الموجودات ونظامها وترتيبها.

تأمّلي يا نفسُ ! وتيقّني واعتقدي بأنّ على رأس هيئة الموجودات ونظامها وترتيبها، وتحت أفق الأزليّ تبارك وتعالى، هو العقل أو عالم الجبروت، وهو أقرب طريق إلى اللاهوت أو عالم الله سبحانه وتعالى. وهو العالي على جوهر النفس والمحيط بها.

وهو ألطف الموجودات وأشرفها وأعلاها منزلة، والآخذ عن الله بغير وسيط، ويفيض إفاضاته القدسيّة من الشرف والنور والحياة. وهو العقل الروحانيّ الذي عند الأنبياء والأئمّة عليهم السلام وأولياء الله المنتجبين الصالحين. وبه يستشفّ الأنبياء أسرار الوجود وأسرار النفس البشريّة، وأنّه الترجمان الأعظم والحاجب الأقرب.

وعلم اليقين – الذي ذكره والدي السيّد حسين العالم قدّس سرّه في كتابه المجالس - هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، كما في الحديث النبوي الشريف: {العلم نورٌ يقذفه الله في قلبِ من يشاء}، فلذلك فعلم اليقين [1] ينتمي إلى السماء.

وهناك عقول أخرى أقرب إلى الذهن منها إلى الروح، وهي لا تأخذ عن الله تعالى بغير وسيط، كما في العقل الروحاني، بل تأخذ عن الله تعالى بوسيط، على النحو التالي:

١- عقل الفلاسفة الإلهيين أو العرفاء النظريين، يشتاقون إلى العرفاء، ولكنّهم ناقلون أكثر منهم شاهدون. وهذا الشوق فيهم ربّما غرّهم فهووا، وربّما كان السبب في علوّ مرتبتهم عند الله إذا ماتوا على التزكية. وهم يأخذون عن الله بوسيط، وهو الفكر الذي هو من إفرازات المخّ المحدود والتي تستمدّ قوّتها من المحسوسات

[1] وإنّه من الأهمّية بمكان، أن نذكر هذه الحقيقة، بأنّ مرحلة ما قبل اليقين من الاستدلالات الذهنيّة والبراهين الفكريّة من علم الفلسفة، التي تشوبها الشكوك والريب، لا تُقاس ولا تُقارن البتّة بمرحلة ما بعد اليقين، من نوع الاستدلالات والبراهين، التي ذكرها السيّد حسين العالم قدّس سرّه، والتي تتميّز بالاعتقاد الثابت الجازم بالأمور الغيبيّة الواقعة، ولا يتزعزع أصحابها عن إيمانهم قيد أنملة، ولو سلّطت عليهم آلاف السيوف، ولا يمكن للظلمة أن تغشاهم لأنّ قلوبهم تنوّرت بالنور الإلهي. فهم الذين نظروا إلى الأرض وإلى البحار وإلى نجوم السماء وإلى المخلوقات الأخرى، فتعلّموا منها درسهم العظيم، وأمعنوا نظرهم فيها، وتفكّروا في الآثار الإلهيّة، **فأزيحت حجب الظلمة دفعة واحدة عن قلوبهم**، وحصل لهم اليقين بالمبدأ الواحد الأحد الصمد، اليقين الذي لا يتزعزع بفعل تيّارات الرياح المخالفة. فأين الثرى وأين الثريا !!!

فمرتبة علم اليقين الذي يتكلّم عنها السيّد حسين العالم قدّس سرّه لا علاقة لها بالفلسفة واستنباطاتها، والعلوم البشريّة واجتهاداتها، المنقولة منها والمعقولة، وإفرازات المخّ التي تستمدّ قوّتها من حواس الإنسان الخمس. لأنّ علم اليقين ليس علمًا مكتسبًا، بل إنّه علم يحصل للسالك خارج عالم المحسوسات، وهو نور إلهيّ يبزغ في قلب السالك، من نوع العلم الذي ذكره الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم: {العلم نورٌ يقذفه الله في قلبِ من يشاء}.

والحواس الخمس، ومن قوّة الذهن ومن قوّة الذكاء. وهو اختراع بشريّ أرضيّ صرف. وهم يستعملون الاستدلالات الذهنيّة والبراهين الفكريّة من علم الفلسفة التي تشوبها الشكوك والريب. وهم يعتقدون بأنّ الأشياء كلّها خُلقت بيد قدرة متافيزيكيّة مجهولة.

٢- عقل الفلاسفة الماديّين الذين يأخذون عن الله بوسيط، وهو الفكر وقوّة الذهن وقوّة الذكاء. وهو اختراع بشريّ أرضيّ صرف. يستعملون الاستدلالات الذهنيّة والبراهين الفكريّة من علم الفلسفة التي تشوبها الشكوك والريب، ويستنبطون أحكامهم عن أسرار الوجود وأسرار النفس البشريّة بوسيلة عقولهم وأفكارهم، التي هي من إفرازات مخّهم المحدود، والتي تستمدّ قوّتها من المحسوسات والحواس الخمس. وهم يعتقدون بإصالة الأفكار التي هي من إفرازات الخلايا المخّيّة وتفاعلاتها الكهربائيّة والمغناطيسيّة والكيماويّة. وهم يعتقدون بالطبيعة أو المادة المحسوسة فقط.

٣- عقل العلماء الطبيعيين، وبه يستنبطون أحكامهم من كمّيات الأشياء وكيفيّاتها، بيد أنّ عقولهم تأخذ عن الله بوسيط. والوسيط عندهم أنّهم يستعملون التجربة والمشاهدة ويستعينون بالآلات والأجهزة. فهم أقرب إلى المشاهدة الحسّيّة منهم إلى النقل، وإنّما النقل عندهم هو تراكمات المعرفة التجربيّة من العلماء الماضين أو المعاصرين، التي خزّنوها. والفرق الكبير بينهم وبين الأولياء هو أنّهم يحاولون أن يعرفوا كلّ شيء إلّا أسرار أنفسهم، وأنّهم يجرون تحقيقاتهم التجربيّة على أساس المادة.

٤- وهناك عقل عند عامة الناس وخاصّتهم وهو عقل المعاش، وبه يدبّرون أمور دنياهم، ومن فقده من الناس تعثّر في حياته واحتاج إلى عون الأقوياء من بني جنسه.

وتراكمات المعرفة التجربيّة - التي أشرنا إليها - هي التي تكوّن العمود الفقري للحضارات. والواضح أنّ ما أفصح عنه نبيّ الله إدريس عليه السلام من العلوم - قبل الطوفان وفي الماضي السحيق - قد تعرّض لتطوّرات هائلة بسبب التطوّرات في تراكمات المعرفة.

فكما ذكرنا فإنّ فكرة العناصر الأربعة التي عاشت آلاف السنين قد تعرّضت إلى تطوّرات هائلة في ٣٥٠ سنة التي مضت. وكذلك السموات الثلاث التي ذكرها نبي الله إدريس عليه السلام وهي: جوهر النفس والعقل والأزليّ تبارك وتعالى ، قد تحوّلت الى سبع سموات، وتغيّرت الاصطلاحات العرفانيّة، كما ذكرتُ في مقدّمة كتابي (السموات السبع)، ولو أنّ جوهر الموضوع بقي كما هو.

وفي الفصل التالي سوف أذكر لكِ يا نفسُ ! هذه السموات السبع مع الشرح الدقيق لمختصّات كلّ سماء وما يرافقها من أحوال النفس طوال رحلتها من (أنا) إلى (أنا)، أو بالأحرى معراج النفس من محدوديّتها الضيّقة إلى الرحاب الوسيع اللانهائي في عوالم الجبروت واللاهوت.

السموات السبع

[1] إنّ في أعماق الإنسان مكنونات ونداءات باطنيّة فطريّة لكشف الأسرار والحقائق. فإذا تلقّت هذه النداءات الفطريّة الطاهرة منه أذنًا صاغيةً واهتمامًا وجوديًّا، برزت حاجته وأشواقه إلى كشف الحقيقة العظمى التي تتخطّى العوالم المحدودة، وهناك يبدأ دور العرفان ليخاطب هذه المكنونات والنداءات، ومن ثمّ تبرز حاجة الباحث وأشواقه إلى كشف الأسرار.

ويبدأ طريق السالك في سيره وسلوكه تحت تعليمات شيخه المرشد ومعلّمه الباطني، ويبدأ بمعالجاته ودوائه كالمريض تمامًا تحت تعليمات طبيب حاذق عارف بجذور المرض ومضاعفاته ومن ثمّ دوائه ومعالجته.

وبفضل اتّباعه الظاهري والباطني لتعاليم أستاذه، تستقيم نفس السالك وأفكاره، ويهدأ عقله الطاغي، ويُنقذ من كبره وغروره، ويتعرّض لعمليّة تزكية شاملة، ويهتدي إلى معرفة الله، وكشف عوالم الغيب والسرّ والمشاهدات القلبيّة والإدراكات الباطنيّة، وإلى طيّ المنازل والمقامات والسموات، منزلةً منزلةً ومقاماً مقاماً وسماءً سماءً، بما يسمّى الأطوار السبعة القلبيّة أو المعارج السبعة الروحانيّة أو السموات السبع كالآتي.

علمًا بأنّ السموات في الاصطلاح العرفاني هي المعارج الروحانيّة أو المقامات والأطوار القلبيّة كما في حديث الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: { لكل شيء مفتاح ومفتاح السموات قول لا إله إلا الله }:

[1] من كتابي السموات السبع.

السماء الأولى :

هي الطّور القالبيّ، وسمتها الغالبة هي الطلب. يبدأ الطلب ملحًّا لاستكشاف الحقيقة، ويبدأ التجافي عن الدنيا وعن دار الغرور والإنابة إلى الآخرة وإلى دار الخلود. يبدأ بمشاهدة النّفس الأمّارة بالسوء والشعور برغباتها وشهواتها وطغيانها ورؤية الجحيم أو النار الملتهبة في نفسه.

ودافعه إلى ذلك نداء باطنيّ يشير إلى وجود الأسرار العظمى في باطنه وإلى طريق في بواطن نفسه يوصله إلى ربّه. يدرك أهمّية المرشد والدليل والمعلّم ويده البيضاء لمساعدته على الخروج من مستنقعات المادة ونفسه الأمّارة، ويبدأ عنده طلبٌ للعروج في المعارج الروحانيّة تحت عنايات الحقّ وهمّة المرشد.

السماء الثانية:

هي الطور النفسيّ، وسمتها الغالبة هي الإيمان والعقل الروحاني والمعرفة الخالدة. تبدأ نورانيّة القلب تنجلي في هذا الطور والمقام، وتبدأ همّة المرشد بأن تؤتي ثمارها في هذا الجلاء القلبيّ، وتبدأ التزكية عملها في نفسه الأمّارة التي تنقلب إلى نفسٍ لوّامةٍ على كلّ فعلة وعلى كلّ فكرة وعلى كلّ هفوة لسان وزلّة جنان.

يبدأ برؤية ذنوبه والشعور بها، وينطلق الضمير حرًّا يحاسبه على ذنوبه. العقل المادي أو عقل المعاش يترك مواقعه للعقل الروحاني أو عقل الخلود، ويجد امتداده اللانهائيّ وزحفه القويّ في عالم الخلود والروحانيّات، وذلك بقوّة العشق لخالقه وربّه. ويتألّق نور الحقّ في الباطن وتنفتح البصيرة.

السماء الثالثة:

هي الطور القلبيّ، وسمتها الغالبة هي العشق الصامت والتركيز على خزانة السرّ الخفيّ في الباطن. يصمت السالك فيها عن الحديث، ولا يفشي كلّ ما يجد في قدسيّة قلبه، إذ أنه يميل إلى ما اصطلح عليه العرفاء بأنّ إفشاء سرّ الرّبوبية كفر.

تبدأ عنده فترة الانزواء عن الخلق والتركيز على القلب وعلى المعقد النورانيّ في القلب، ومن خلالها يطّلع على الملأ الأعلى، في نهاية المطاف.

وهذا الفتح وهذه الإطلالة على عالم الملائكة والروح تحدث في أحلك ساعات الاضطرار، في ليلة القدر. وتبدأ عند ذلك هجرته في معلّمه، ويغرف من تعاليمه ومن معرفته الخالدة ليستعين بها في الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس.

وبفضل المعرفة الخالدة وبركات معلّمه السماوي، يجتاز الصراط ويطّلع على الجحيم وأهوال النفس، ويصل إلى برّ الأمان بعشقه وبنور العرفان وبقوّة ولائه لأهل الله وآل الرسول الطيّبين الطاهرين.

السماء الرابعة:

وهي الطور السرّيّ، وسمتها الغالبة هي الشهود والمكاشفات الباطنيّة والملكوت، التي ارتقى إليها عيسى عليه السلام والقدّيسون والربّانيّون، وتتيسّر للسالك عادة عن طريق التعميد والتطهير، فيجلو قلبه كالمرآة، وهو منظر الفؤاد ومشكاة مصباح الشهود، وتتحقّق الرؤية في هذه المرآة الصافية، بحيث {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [1].

[1] سورة النجم الآية ١١.

يتحقّق له الموت قبل الموت، تصديقًا لقول الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: {موتوا قبل أن تموتوا}، فيموت عن نفسه ومحوريّتها المحدودة ويدخل الحياة الخالدة الحقيقيّة، كما في القرآن الكريم الآية (٦٤) من سورة العنكبوت:{ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }. ويفي بميثاقه لربّه بعبوديته له وفنائه عن نفسه وقبول ربوبيّة الله والبقاء فيه ومعه وبه.

وفي هذا الطور، يبدأ السالك جهاد النوم وسلطانه حتى تنجلي مناظر الشهود أمامه وهو في حالة ما بين النوم واليقظة، وتتحقّق له المكاشفات والرّؤية في عوالم الروح والملكوت، ويُصقل جسمه المثاليّ الأثيريّ بحيث تتحقّق له شفافيّة روحيّة.

والجسم الأثيريّ أو الروح هو النسخة الأصليّة من الصّورة الإنسانية، والجسم الماديّ أو البدن والجوارح ما هي إلا نسخة من الأصل، وتعتمد على الأصل في كلّ مكوّناتها الحياتيّة.

ويُصقل الروح كما تُصقل المرآة وتنفتح البصيرة أو العيون الكثيرة في باطن السالك، وتتحقّق له الحياة الخالدة، ويدخل مقام الاستغناء.

السماء الخامسة:

وهي الطور الروحيّ، وسمتها الغالبة هي التوحيد ونفي الكثرة الموهومة، وهو عالم علم أحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

يترك فيها السالك الهوى، وينفي ما سوى الله، ويدخل طورًا مليئًا بالأسرار، ويرى الغيب الخفيّ ولمن تكون الدولة الخالدة. تتحقّق للسالك العبوديّة المطلقة لله، ويصبح تابعًا له كتبعيّة الظلّ لصاحبه، وتتحقّق له بذلك الربوبيّة، كما جاء في

حديث الإمام عليّ عليه السلام: { العبوديّة جوهرةٌ كنهها الربوبيّة }، وكما جاء في الحديث القدسيّ: { عبدي أطعني تكن مثلي، فكما أقول للشيء كن فيكون تقول للشيئ كن فيكون }.

علم اليقين عند السالك يتحوّل إلى عين اليقين، ويذوب العلم وتتبدّد المعلومات، وتقوم مقامها الرّؤية اليقينيّة. وينظر السالك بعين الله ويسمع بأذنه وينطق بلسانه ويبطش بيده ويسعى بقدمه، كما جاء في الحديث القدسي: {لا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يسعى بها، فبي يبصر وبي يسمع وبي ينطق وبي يبطش وبي يسعى، وإن استعانني أعنته، وإن دعاني أجبته}.

وهذا التحوّل الجوهريّ عند السالك لونٌ من ألوان القيامة يعيشها في باطنه، وبينه وبين الناس ما بين السماء والأرض. فإذا التوحيد قائم في وجوده، وإذا الرّحلة التي بدأها بكلمة {لا إله} تنتهي إلى نفي الكثرة الموهومة. والرّحلة التي بدأها بكلمة {إلا هو} تنتهي بالتوحيد، ويتخلّص من القلّة والكثرة والخير والشرّ وتكاثر الآثار والأفعال وخيرها وشرّها، وتكاثر الصّفات وخيرها وشرّها.

وتتجلّى مشيئة الله صافية في كلّ آثاره وأفعاله وصفاته، ويتخلّق بأخلاق الله ويتّصف بصفاته، ويرى الحقيقة كما هي، وتتضاءل الدول في عينيه ويستقرّ في دولة الله الخالدة، كما جاء في القرآن الكريم، الآية (١٦) من سورة غافر: { لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }.

يصير قلب السالك مجرّدًا، وتصل إليه الحرّيّة من الله سبحانه وتعالى، ويطير حرًّا من قضبان سجن الدنيا.

السماء السادسة :

وهي الطور الخفيّ، وسمتها الغالبة هي الحيرة ومقام الفناء في المعلوم وظهور الغيب. تتأجّج فيه نار العشق والمحبّة لله سبحانه وتعالى كما تتجلّى في الإمام الحسين عليه السلام حين يقول في كربلاء :-

تركــتُ الخلــق طــرًّا في هــواكَ وأيتمــتُ العيــال لــكي أراكَ

فلــو قطّعتــني بالســيفِ إربًا لمــا مــال الفــؤاد إلى ســواكَ

فهو العاشق الذي رأى الله فعرفه فعبده، وهو الحيران من هذا الظّهور الربّانيّ، وهو دفتر المعرفة المحترقة بنار العشق، يتعلّم فيها العاشق فناءه، ولا يريد إلاّ وجه الله العليّ العظيم. فهو العبد الولهان، وكلّ وجوده وجوارحه وخلاياه متوجّهة إلى الله في عبادة العاشقين المخلصين.

وهذا العبد العاشق العابد يجد الجوهر الربّانيّ، ولا يستأنس بما سوى الله، وأنّى له أن يستأنس بما هو سرابٌ زائف وظاهرةٌ فانية وعرضٌ عارض ! يأنس بالجوهر الإلهيّ ولا يرى إلاّ الله ولا يسمع غيره، وهو الملتحق بحرم قدس الله والمستقرّ في السبّوح القدّوس.

قد ارتقى إلى مقام الفناء في المعلوم، وظهر له الغيب الخفيّ، ونظر إلى الكثرات فما وجد إلاّ الأحد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد.

فالله هو المظهر لتكاثر الموجودات، وهو الكنز الخفيّ الذي أراد أن يُعرف فخلق الخلق لكي يُعرف، وانتهى الخلق إلى قليل من عباده العارفين، نظروا إلى مرآة وجه الله وعرفوه، واطَّلعوا على كنز أنوار الحضور وتلقَّوا أسماء الله الحسنى.

ثمّ بدأ التجلّي في أسمائه فكان كلّ إسمٍ عالمًا قائمًا بذاته وبحرًا زاخرًا من جبروته، فكان التجلّي الأسمائي بعد تجلّي الآثار والأفعال والصّفات والأخلاق الربّانيّة، فكان كما ذكر الله تعالى في الآية (١٢٢) من سورة الأنعام: { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.

السماء السابعة:

وهي طور غيب الغيوب، وسمتها الغالبة هي ذروة الشوق الجلاليّة والكبريائيّة. يدرك فيها الواصل درجات الشهود من عتبات المشهود، ويصل بعد رحلته الطويلة وسعيه المشكور في السير والسلوك إلى ما ذكره الله تعالى في سورة الإنسان الآية (٢١): { وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا }، أو كما ذكره الرسول محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم في حديثه: { إذا تمّ الفقر فهو الله }.

فهو في هذا الطور في تمام فقره وفنائه وقد اختفى منه كلّ رسم وإسم، كالقطرة اتّصلت مرّة واحدةً بالبحر. وانمحت من لوح الأزل نقش الإثنينيّة كما انمحت من لوح البحر نقش القطرات.

فالعبد في تمام فقره وفنائه لا فرق بينه وبين ربّه، كما أنّ القطرة في تمام فنائها لا فرق بينها وبين البحر، كما جاء في حديث الشراب للإمام علي عليه السلام: { إنّ لله تعالى

شراباً لأوليائه إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا أخلصوا، وإذا أخلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتّصلوا، وإذا اتّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم }.

فيصبح عالمه عالم الله، ويتحقّق فيه التجلّي الذاتيّ بعد التجلّي الأسمائي، أو يتحقّق فيه حقّ اليقين بعد علم اليقين وعين اليقين، أو بعبارة أخرى يصبح الواصل المتّصل تجلّيًا وتجسّدًا للعلم الإلهي والأسماء الحسنى والحكمة الربّانيّة الأزليّة الأبديّة.

فهو في قدسيّة الزلفى مع الذين أنعم الله عليهم من الفقراء الواصلين، الذين افتخر بهم الرسول الأكرم محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم في حديثه: { الفقر فخري }، وهم آل الرسول والأئمّة المعصومون من عترته، ومن كان من طينتهم من الأولياء والعرفاء المقرّبين، وهم سفينة النجاة، والفرقان بين الحقّ والباطل، وطينة النور والهدى، والعروة الوثقى، والحبل المتّصل بين الأرض والسماء. وفي جوار هؤلاء، وفي فُلك نجاتهم، يجد الواصل العاشق بقاءه وخلوده في سرّ الله العليّ، ويجد قلبه السكينة الباقية.

العرفان ودوره في التربية

وهذا التوجّه العرفاني لمخاطبة النداءات الفطريّة والرغبة الجادّة في كشف الحقيقة، هو نفس التوجّه الذي اتّبعه الأنبياء والرسل وأئمّة الهدى للتربية وللانفتاح والثبات على نقطة استقرار الهويّة الحقيقية وعالم الأسرار الباطنيّة وللتجربة الوجوديّة لحقائق الوجود، وهذا هو الطريق الصحيح للمعرفة الحقيقيّة.

فالوجود عندهم ليس منفصلًا عن الإنسان، بل الإنسان كسائر الموجودات، ما هو إلاّ تعيّن منه، كما أنّ القطرة أو الموج تعيّنات من الماء. وحقائق الوجود قائمة في عوالمه الباطنيّة الحقيقية، كما أنّ الماء قائمٌ في القطرة أو الموج.

وهذه النّظرة العميقة ظاهرةٌ في أقوال الأنبياء والرّسل وفي أقوال الأئمة الهادين عليهم السلام، كقول الإمام علي عليه السلام:

دواؤكَ فيكَ وما تشعرُ ... وداؤكَ منكَ وما تبصرُ

أتزعمُ أنّكَ جرمٌ صغيرٌ ... وفيكَ انطوى العالمُ الأكبرُ

وأنتَ الكتابُ المبين الذي ... بأحرُفِهِ يَظهرُ المُضمَرُ

وقول الإمام الحسين عليه السلام:

أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ، حَتّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ

وأيضًا في كلام الأولياء والعرفاء، كأقوال محي الدين بن العربي في وحدة الوجود.

والجدير بالذّكر أنّه على رغم كثرتهم وتباعد عهودهم، يتشابه كلامهم تشابهًا عجيبًا ولا يوجد فيه أيّ تناقض أو تباين، فكأنّهم صوت واحد من مصدر واحد، ويقينهم بذلك كالطود الرّواسي. في حين أنّ الأنماط الفكريّة الأخرى في الحضارات البشريّة لا تتّسم بالثّبات واليقين، لأنّها تعتمد على الظنّ بدل الرّؤية والمشاهدات، وتفرض مباني نظريّة خاطئة ثمّ تبني استنباطاتها واستدلالاتها على ذلك. وعندما تتغيّر المباني تنقلب الاستنباطات على نفسها، وهذا ما يحدث كثيرًا في المذاهب الفكريّة المختلفة.

وكلّ هذه الأنماط الفكريّة تدرس الإنسان منفصلًا عن الوجود، وفي قبال شيء خارج عنه، اسمه الوجود. في حين أنّ رسالة العرفان، التي هي إبلاغات الأنبياء والرسل، تنطلق من كلمة { لا إله إلا الله }، أو كما عبّر عنها أستاذي ومعلّمي صادق العنقا - قدّس سرّه - بكلمة { لا موجود إلا وجود }.

وهذه الحقيقة تتحقّق في وجود العرفاء بحيث يذوب ويفنى في وجودهم كلّ شيء، ما عدا الله، كما وصفهم الإمام عليّ عليه السلام بقوله: { عَظُمَ الخَالِقُ في أنفُسِهِم فَصَغُرَ ما دونَهُ في أعيُنِهِم }.

فالعارف هو الفناء بعينه في الوجود، ولا يرى ولا يسمع إلا الله، ولا يحسّ ولا يعيش غيره، أو ما يسمّيه العرفاء بوحدة الوجود. أمّا الموجودات، فهي عنده تعيّنات من الوجود، كما أنّ القطرة والبخار والجليد والضباب والسحاب وغيرها تعيّنات من الماء.

والفلاسفة، على اختلاف مذاهبهم، يرتكزون على انفصاميّة الوجود، وينطلقون من إسارة حواسّهم المحدودة وتفاعلها مع عوالم الطبيعة المحدودة المتغيّرة، فَهُمْ أسراء الطبع والمكتسبات والمخلوقات الفكريّة التي تمنعهم دون الانفتاح على وحدة الوجود. أو كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: { كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم بأدقّ معانيه فهو مخلوق عنكم ومردود إليكم }.

وهذه المباني الفكريّة الخاطئة، الضالّة عن الحقيقة، لا تنبني عليها البتّة إلّا أحكام خاطئة، تناقض بعضها البعض، على مدى أحقاب زمنيّة مختلفة .

والفيلسوف، بمختلف أساليبه وفي محاولاته لكشف الحقيقة، يتعامل مع ذهنيّات متغيّرة متلوّنة، التي هي في الحقيقة إفرازات دماغيّة تنبثق من تفاعل حواسه الخمس مع محيطه الماديّ المحدود. في حين أنّ العارف، في ارتكازه على هويّته الواقعيّة ومركزيّته الحقيقيّة وشهوده في عوالم الغيب والأسرار، يشهد الحقيقة العظمى ويعرفها، أو بعبارة أخرى يعرف المطلق لأنّه المطلق، كحالة الإمام عليّ عليه السلام حينما يقول: { رأيته فعرفته فعبدته }، أو حالة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كما ذكرها القرآن الكريم في سورة التكوير الآيات ٢٣-٢٤: { وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ }، أو كحالة عيسى عليه السلام إذ وصفها بقوله: { طوبى للمتواضعين فإنّهم يشاهدون الله }.

والفيلسوف ينطلق من المتغيّرات، ويجري وراء المتغيّرات، ويستعمل صولجان عقله واستدلالاته واستنباطاته، كما يُستعمل السّيف الصارم في الحجر، لا ينال بُغيته، ولا يصل إلى الحقيقة المطلقة، وهو أشبه ما يكون بممثّل السّينما أو المسرح يلعب دور الأبطال، والأبطال في عالم آخر وفي ماهيّة أبعد ما تكون عن ماهيّاته وكيفيّاته وعوالمه. فأين الألفاظ عن المعاني ! وأين التمثيل عن الحقيقة !!!

أمّا العارف فيعرف أنّ الموجودات في تغيّر دائم وفي طلوع وأفول، وهو لا يتعامل مع المتغيّرات، بل الحقيقة عنده ما هو ثابت، وهو الله أو الوجود البحت البسيط، واستقراره واتّحاده فيه هو الحقيقة بعينها.

وهذه هي نفس الحقيقة التي توصّل إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بعد تجربته مع المتغيّرات والمحدوديّات، وعزوفه عنها، وإقبال روحه العظيمة على الله فاطر كلّ شيء.

فالعرفان، يا نفسُ ! هي رحلة منك إليكِ، من واقعكِ الفعليّ المنغمس في المكتسبات وإلى فطرتكِ الأصيلة المجرّدة من الاعتبارات الإجتماعيّة وإضافات التربية، ومن ثَمَّ إلى الوجود البحت البسيط، الذي منه نبعتْ فطرتكِ، وفيه تعيش، وإليه المعاد والأوبة، ومنه تستمدّين الحول والقوّة الأزليّة، وتخرجين من المحدود والمتناهي إلى اللّامحدود واللّامتناهي، كما ترجع القطرة إلى المحيط وتتّصل وتفنى في الماء البحت البسيط.

والعرفان ليس صعبًا، كما يبدو، يا نفسُ ! بل هو الفهم البسيط الوجدانيّ بعينه لفطرتك البسيطة السهلة، وللوجود الذي أنتِ منه ومعه وإليه، ولهذا تفهمه وتستسيغه الأرواح الصافية المنزّهة عن التعقيدات والمكتسبات، وتستلذّ منه القلوب الخاشعة المتواضعة، وتقبله العقول الكاملة المبرّأة من الهوى والغرور والاستكبار، بل هو غذاء الروح وموسيقى القلوب ونبراس العقول.

والعرفان ليس مجرّد فهم ومعرفة، بل هو نورٌ ووجدانيّات تهدي الرّوح إلى النموّ والرّشاد، ومن ثمّ إلى مقاماتها الشامخة ودرجاتها في أعلى علّيّين.

والعرفان هو معرفة الحقيقة كما هي، وكما عرفها الأنبياء من لدن حكيم عليم، فهو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، وهل يتلقّى النور إلاّ من ألقى السمع وهو شهيد !

فلماذا هذه الصعوبة في فهم العرفان، على الرغم من سهولته وبساطته ؟ ذلك لأنّ الإنسان نشأ في مجتمعاتٍ كالأسرة والأصدقاء والمدرسة وغيرها، تطغى فيها القيم الاعتباريّة الاصطناعيّة على القيم الفطريّة الأصيلة، فتصعب عند ذلك استساغة الفطرة، لانغماسه في المكتسبات الاصطناعيّة

التي غذّاه بها المجتمع منذ نعومة أظفاره، فَرانَ على قلوب البشر ما كانوا يكسبون، فأصبحوا كالحاسوب المبرمج، لا يتقبّلون إلاّ ما بُرْمِجوا لأجله.

آليّة الوصول إلى الله

يا نفسُ ! لأجل أن يعود السالك إلى الفطرة ويتّبع آيات الله في نفسه، لابدّ من مجاهدة هذه القيم الاعتباريّة في نفسه، ونسرد بعضها على سبيل المثال لا الحصر:-

١) الكبر والغرور: إذ أنّ الإنسان يعتبر نفسه، جهلًا وخطأً، مهمًّا في هذا العالم، في حين أنّ العالم المعروف (وما هو إلاّ ذرّة من العالم المجهول)، تقاس مسافاته بالبلايين من السنوات الضوئيّة، علمًا بأنّ بُعدنا عن الشمس جزء من ٧٥٠٠٠ جزء من السّنة الضوئيّة، وفي هذه الكرة الأرضيّة الصغيرة جدًّا، توجد في وقت ما بلايين من الموجودات، وما هذا الإنسان إلّا واحد منها، فما بالك بالموجودات على مدى أزمِنةٍ تقدّر ببلايين من السنين !

٢) الجهل المركّب: وهو أنّ الإنسان، على رغم جهله، يعتبر نفسه عالمًا ويحسب أنّه يعلم، في حين أنّه كالموجودات الأخرى، يأتي إلى هذه الحياة من دون علمه، بل من دون اختياره، ويعيش بفضل نظام داخليّ في جسمه هو في كمال روعته، ونظام خارجيّ في البيئة والمناخ هو في كمال إعجازه وإبداعه، يتفاعل معه بدون توقّف، يأخذ منه النّور والهواء والماء وعددًا لا يعدّ ولا يحصى من النّعم، وكلّ ذلك في وفرة الحبّ والنّوى والرّمل والحصى والنّجم في السّماء، ويعيشها من دون علمٍ بصنعها وماهيّتها ومصدرها ومآلها، ثمّ يذهب عن الدنيا من دون علمه وإرادته.

ثمّ في هذا المقطع الزمنيّ القصير جدًّا، أشبه ما يكون بلمحة بصر، يحسب نفسه قد علم. وهل في علمه وإرادته الآن كيف يدقُّ قلبه في صدره حتّى أثناء نومه ؟ وكيف يجري عليه ما يجري على موجوداتٍ أخرى من قوانين، كاليقظة والنّوم والأكل والتّفريغ والزّواج والإنجاب والبرودة والحرارة ومقدارٍ معيّنٍ من الشعور بما حوله وغيرها من القوانين التي لا تُحصى ؟

٣) العجز المركّب: وهو أنّ الإنسان عاجز، ويحسب أنّه غير عاجز. وإذا اشتدّ عُوده بطر وطغى، واعتبر القوّة المؤقّتة الممنوحة له قوّته الذاتيّة الأصيلة. وعلى أساس هذا الاعتبار يظلم غيره، بل يظلم نفسه ويرتكب من أعمال البطر والطغيان والظلم والجور ما يضرّ به ويخيف به أبناء جنسه، بل يجلب على نفسه الضرر من جرّاء هذه الأوهام.

إنّ الإنسان قد خُلق ضعيفًا، ثمّ إنّه في شبابه يُمنح له بعض القوّة، ويسلب منه بعد ذلك تدريجيًّا، حينما يكبر في السّن. وكلّ هذه القصّة لا تتجاوز بضعًا من السنين، والإنسان المغترّ بنفسه يحسب ما يحسب لنفسه وهو لا يعلم ما مصيره بعد سنة، بل حتى بعد شهر، بل حتى بعد يومٍ أو ساعةٍ أو دقيقةٍ أو ثانيةٍ.

فإنّكِ يا نفسُ ! تجدين رجلًا قويًّا في عنفوان قوّته وجبروته قد تهشّم في لحظة، في حادثة سيّارة أو طيّارة أو سقوط أو غرق أو تسمّم أو قصف جوّيّ أو صدمة كهربائيّة وغيرها من الحوادث الغير الطبيعيّة، أو زلزال وصاعقة وسكتة قلبيّة وسكتة دماغيّة والسرطان وغيرها الكثير من الحوادث الطبيعيّة.

ثمّ إنّ نظام جسمه يتشكّل من بلايين الخلايا والأوعية الدمويّة والأعصاب والعضلات والجوارح، واختلال أحدٍ منها ربّما أودى بحياته وحوّله إلى رفاتٍ نتنة، لا حراك لها، وقُذف به في لحده الضيّق وحيدًا فريدًا، هجرته الأحبّة والأقرباء، وفارقته الأصحاب والأصدقاء، وتركه أولاده وإخوانه وعشيرته، وتوسّد التراب، وجاور الديدان والعقارب وأنواعًا أخرى من الحشرات في باطن الأرض ، بَعد عزٍّ ورفاهيةٍ وحريرٍ وديباجٍ ومالٍ وثروةٍ وبطانةٍ ونساءٍ وجاهٍ وصولجانٍ.

فهو لا يملك حركة قلبه وزفيره وشهيقه وجريان الدم في عروقه، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. وهو في أوهامه وغروره، يعتبر قوّته ذاتيّة وأصيلة، وليست هي إلاّ نعمة تُهدى ليبلوكم أيّكم أحسن عملًا.

٤) الهلاك المركّب: الإنسان ظاهرة هالكة فانية، ويحسب أنّه الباقي، وأنّ الموت والفناء لغيره، يرى الموت بعينه، في كلّ يوم وليلة، يبطش بهذا وذاك، وهو يمرّ على هذا الموت مرّ الكرام، وربّما تأثّر هنيهة، ثمّ نسي الموت وأهواله، ورجع إلى غفلته الطويلة ونومته الساذجة.

يا ليته فَهِمَ هذه الحقيقة البسيطة، بأنّ كلّ شيءٍ فانٍ، ولا دوام له، كما قال الله تعالى في سورة الرحمن الآيات ٢٦-٢٧: { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }، وكما قال الإمام عليّ عليه السلام: { لو دامت لغيرك لما وصلت إليك }.

هذه القيم الاعتباريّة التي ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر هي الحُجُب المظلمة التي تمنع الرؤية الصافية. فإذا أراد الإنسان تزكية نفسه منها والخروج من محوريّتها وجاذبيّتها، تبع طريق العرفان ودخل السير والسلوك لرحلته العظمى إلى السموات السبع ومقامات روحه الشامخة وسموّه ومعراجه إلى ربه.

أما آلية السير والسلوك لتحقيق المعراج والسموّ والرشاد، فهي التي اتّبعها جميع الأنبياء والأئمة والأولياء عليهم السلام ، وتتلخّص في الآتي:-

١) الإمامة وإدراك نورانيّة معلّم الطريق: فلابدّ من معرفة الشيخ المرشد في السماء والاتّباع الخالص، ظاهرًا وباطنًا، لتعاليمه، كما ذكر في القرآن الكريم الآية (١٧) من سورة الكهف: (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)، أو كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام: { هَلَكَ مَنْ لَيسَ لَهُ حَكِيمٌ يَرشُدُهُ }. والسالك يتعرّف نورانيًّا على معلّمه الذي نال معرفة الحقيقة وفني فيها.

٢) تلاوة آيات الله أو تعليم النظرة المحيطة والمعرفة الحقّة واستنارة القلوب بحقائقها الخالدة،{ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ }[1] . والشيخ أو المعلّم السماويّ هو المؤهّل لتلاوة الآيات على السالك السائر إلى الحقيقة الكبرى، من الصدر إلى الصدر.

٣) الذكر المتواصل هو مفتاح السموات، كما جاء في حديث الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: { لكلِّ شيءٍ مفتاح ومفتاحُ السموات قولُ: لا إله إلا الله }. والذكر يفتح باب الاتّصال مع الله ومناجاته. وإذا استمرّ هذا الذكر

[1] سورة العنكبوت الآية ٤٩.

وتواصل، ذَكَرك الله، كما جاء في القرآن الكريم الآية ١٥٢ من سورة البقرة: { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ }.

٤) التركيز أو التفكّر أو التمركز القلبيّ: وهو التركيز الدائم على القلب، لأنّ القلب هو نافذتك على الملأ الأعلى، والمعراج الدائم والصلاة الدائمة، كما جاء في القرآن الكريم في سورة المعارج الآية (٢٣) : { الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ }، أو كما جاء في تجربة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم الآية ٧٩ من سورة الأنعام: { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ }.

٥) الصمت أو صوم اللسان ظاهرًا عن تكثير الكلام، وباطنًا عن تمريج القلوب واختلاط الأفكار والتفرقة والتشتّت، كما في الحديث النبويّ الشريف: { لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع }.

٦) صوم العين ظاهرًا عن النظر إلى المحرّمات، وباطنًا عن النظر إلى غير الله، كما في دعاء الإمام الحسين عليه السلام: { حَتّى أَرْجَعَ إِلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ اِلَيْها، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاِعْتِمادِ عَلَيْها }.

٧) صوم الأذن ظاهرًا عن سماع اللغو والغيبة، كما في قول الله تعالى: { وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ } [١] ، وباطنًا عن السماع إلى غير الله.

٨) صوم الجوع ظاهرًا عن بطر البطن: { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا } [٢]، وباطنًا حضور القلب الدائم للكشف والشهود، كما في قول الرسول الأكرم محمّد صلّى

---

[١] سورة المؤمنون الآية ٣.

[٢] سورة الأعراف الآية ٣١.

الله عليه وآله وسلّم: { لا صلاة إلا بحضور القلب } وقوله تعالى[1] : { الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ }.

٩) قيام الليل والسهر: مقاومة سلطان النوم ومراقبة القلب والحال حتى لا تدخل الواردات الذهنيّة، وكشف عوالم الغيب والشهود في حال ما بين اليقظة والمنام، كما في قوله تعالى[2] : { كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }.

١٠) فترة الخلوة والإنزواء أو فترة الكهف، كما يسمّيها أبو الحسن الشاذلي (رض) للتوجّه الخالص إلى الله، وتثبيت الحال على طهارتها من الشوائب والإضافات، ومحاسبة النفس وعيوبها ومساوئها، والانشغال التام عن عيوب الغير ومساوئهم، وقراءة صفحات كتابه، ومحاسبتها صفحة صفحة قبل حلول القيامة الكبرى، كما جاء في القرآن الكريم الآية (١٤) من سورة الإسراء: { اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا }.

١١) مرتبة المحو والحكمة السماويّة والفناء في حقيقة الوجود.

وهذه هي نفس الآلية التي ذُكرت في القرآن الكريم في الآيات التالية:

الآية (١٥١) من سورة البقرة: { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ }.

---

[1] سورة المعارج الآية ٢٣.

[2] سورة الذاريات الآيات ١٧-١٨.

الآية (١٦٤) من سورة آل عمران: ({ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }.

الآية الثانية من سورة الجمعة: { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

فيا نفسُ ! ها قد تلقّيتِ إلمامة عن العرفان وأهدافه السامية وعن آليّة الوصول إلى مقاماته الشامخة. ومن الله التوفيق، والله يهدي لنوره من يشاء والله واسع عليم.

علم اليقين

[1] الفرق بين علم اليقين والفلسفة الإلهيّة هو الفرق ما بين السماء والأرض. فعلم اليقين نور يقذفه الله في قلب من يشاء، كما في الحديث النبويّ الشريف: { العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء }، فلذلك فعلم اليقين يا نفسُ ! ينتمي إلى السماء. في حين أنّ الفلسفة - بشعبتيها الإلهيّة والماديّة - اختراعٌ بشريٌّ صرف، وهو من إفرازات المخّ، التي تستمدّ قوّتها من المحسوسات والحواس الخمس، فلذلك فعلم الفلسفة ينتمي إلى الأرض.

وإنّه من الأهميّة بمكان يا نفسُ ! أن نضع الخط الفاصل بين علم اليقين، من ناحية، وبين علم الفلسفة وإفرازات المخّ البشريّ والعلوم المعقولة والمنقولة، من ناحية أخرى، بحيث لا يحدث خلط عشوائي. ولا يظنّ القارئ المثقّف خطأ، أنّه بمحض القراءات في الكتب أو السماع من الخطباء على المنابر، يمكن الوصول إلى ما ذكره السيّد حسين العالم [2] قدّس سرّه من علم اليقين، ومن ثمّ الوصول إلى هذه المرتبة من الإيمان، التي هي أكمل وأعلى مراتب الإيمان، ألا وهو الإيمان القلبيّ الشهوديّ.

وإنّه من الأهمّية بمكان يا نفسُ ! أن نذكر هذه الحقيقة، بأنّ مرحلة ما قبل اليقين من الاستدلالات الذهنيّة والبراهين الفكريّة من علم الفلسفة، التي تشوبها الشكوك والريب، لا تُقاس ولا تُقارن البتّة بمرحلة ما بعد اليقين، من نوع الاستدلالات والبراهين، التي ذكرها السيّد حسين العالم قدّس سرّه، والتي تتميّز بالاعتقاد الثابت الجازم بالأمور الغيبيّة الواقعة، ولا يتزعزع أصحابها عن إيمانهم قيد أنملة، ولو سلّطت عليهم آلاف السيوف، ولا يمكن للظلمة أن تغشاهم لأنّ قلوبهم تنوّرت بالنور الإلهي. فَهُم الذين نظروا إلى الأرض وإلى البحار وإلى نجوم السماء وإلى المخلوقات

---

[1] من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين صفحات ١٤٦-١٥٠.

[2] هو والدي قدّس سرّه

الأخرى، فتعلّموا منها درسهم العظيم، وأمعنوا نظرهم فيها، وتفكّروا في الآثار الإلهيّة، فأزيحت حجب الظلمة دفعة واحدة عن قلوبهم، وحصل لهم اليقين بالمبدأ الواحد الأحد الصمد، اليقين الذي لا يتزعزع بفعل تيّارات الرياح المخالفة. فأين الثرى وأين الثريا !!!

فمرتبة علم اليقين الذي يتكلّم عنها السيّد حسين العالم قدّس سرّه لا علاقة لها بالفلسفة واستنباطاتها، والعلوم البشريّة واجتهاداتها، المنقولة منها والمعقولة، وإفرازات المخّ التي تستمدّ قوّتها من حواس الإنسان الخمس. لأنّ علم اليقين ليس علمًا مكتسبًا، بل إنّه علم يحصل للسالك خارج عالم المحسوسات، وهو نورٌ إلهيّ يبزغ في قلب السالك، من نوع العلم الذي ذكره الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم: { العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء }.

أمّا الفلسفة بشعبتيها الإلهيّة والماديّة فهي لا علاقة لها بأمور اليقين ولا بمرتبة علم اليقين، وكيف ذلك في حين أنّ علم اليقين هو نورٌ يقذفه الله في قلب من يشاء. أمّا الفلسفة فهي اختراعٌ بشريٌّ صرف، يستلهم أصحابها العلم من عالم المحسوسات، أو يعتقد أصحابها بإصالة الأفكار التي هي من إفرازات الخلايا المخّيّة، وتفاعلاتها الكهربائيّة والمغناطيسيّة والكيماويّة.

ويليق بنا يا نفسُ ! أن نذكر في هذا المقام تجربة النبيّ إبراهيم عليه السلام، وتحقيقاته واستدلالاته، وتفكّراته في النجوم التي تزيّن السماء الدنيا، وفي بزوغ القمر والشمس ثمّ أفولهما، كمثال حيّ على ما ذكره السيّد حسين العالم قدّس سرّه عن مرتبة علم اليقين، الذي يتأتّى بترتيب المقدّمات والاستدلالات، وبالتفكّر في الآثار الإلهيّة.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام الآيات ٧٥-٧٩: { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

من الواضح البيّن يا نفسُ ! أنّ هذه الاستدلالات الملكوتيّة تيسّرت لإبراهيم عليه السلام، لأنّ الله أراد أن يريه ملكوت السماوات والأرض، وليكون من الموقنين. فحصل له نور اليقين، وحصل له التوجّه الكلّيّ إلى الله، ووجّه وجهه إلى الذي فطر السماوات والأرض، الذي هو يبقى ويفنى كلّ شيء. والله أعلم حيث يجعل رسالته، والله أعلم بالنفوس، فيختار لنفسه أزكاها وأخلصها وأكثرها استعدادًا للنور والهداية. ثمّ ينظر في النفوس الأخرى، فلا يرى تزكية ولا إخلاصًا ولا استعدادًا للنور والهداية، ولا حتى نيّة من هذا النوع.

يقول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم: { لكلِّ امرئٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه }.

فمثل هذه النفوس تتوق إلى الدنيا، وهي محشورة في أنانيّتها وإثبات أعلميّتها، ولا تريد أن تتخلّص من العجب والكبر، فيتركها الله إلى ما هاجرت إليه، فتنشغل بالفلسفات التي لا تؤدّي بها إلى اليقين، ولا إلى الإيمان القلبيّ الشهوديّ، ولا إلى الوصول إلى ربّ العالمين، بل تزيد النفوس ظلمة إلى ظلمة، وتنزلها من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين أكثر فأكثر.

فالمطلوب أن يخرج المرء نيّته من دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، وأن يضع النيّة كلّها في حبّ الله وحبّ الوصول إليه، وحبّ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمة الأطهار عليهم السلام، والاقتداء بهم، وحذوهم حذو النعل بالنعل، وحبّ أحباب الله وأوليائه ومصاحبتهم. فلا تتردّدي يا نفسُ ! في ذلك، ولا تقدّمي رِجلًا وتؤخّري أخرى !!!

أما ترين الحسين عليه السلام يناجي ربّه: {إِلَهِي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الآثارِ فَارْجِعْني إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأَنْوارِ، وَهِدايَةِ الاِسْتِبصارِ، حَتّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ اِلَيْها، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاِعْتِمادِ عَلَيْها}...؟ فهو يهدف إلى الوصول إليه فقط وفقط، مصون السرّ عن النظر إلى الآثار، ومرفوع الهمة عن الاعتماد على الآثار. وهو يهدف إلى كسوة الأنوار وهداية

الاستبصار، تمامًا كجدّه إبراهيم عليه السلام، لا الضياع في الاستدلالات الذهنيّة والبراهين الفكريّة. وحاشاه من ذلك ! فإنّها أضيع من سراج في شمس !!!

فاجعلي هدفكِ يا نفسُ ! لقاء الله وحده، واجعليه نصب عينيك، ولا تنسي ذلك أبدًا، ثمّ انظري ماذا يسّر الله لكِ، إن يسّر لكِ الاستدلالات والبراهين حتى تصلي إلى المؤثّر عن طريق الأثر، فليكن ذلك، ولكن لا تنسي أن تلحفيه بالسؤال بأن يعجّل لك الوصول إليه فقط وفقط، وأن تظهري الاستقامة في طلبكِ، والإرادة في التعجيل للقائه، والإدبار عن دار الغرور، والإقبال على دار الخلود.

يُقال أنّ الفيلسوف الشهير ملّا صدرا الشيرازي الذي أمضى ثلاثين سنة في تأليف فلسفته الإلهيّة، حينما اقترب من سكرات الموت ، تفوّه بهذه الكلمة المشهورة:- { يا ليتني فهمت حقّ الفهم هذه الآية الصغيرة من القرآن الكريم: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [1] ، وأمضيت في العمل بها كلّ عمري، بدل أن أضيّع ثلاثين سنة من عمري في متاهات الفلسفة } !!!

إذَا قَالَـتْ حـذَامِ فَصَـدِّقُوهَا فَـإنَّ القَـولَ مَـا قَالَـتْ حَـذَامِ

فاعتبروا يا أولي الألباب ! فانظري يا نفسُ ! ماذا تكون كلمتكِ الأخيرة عند اقتراب الموت، صدقًا وإنصافًا أمام الله، لا نفاقًا ورياءً أمام الناس ؟

أتكون { فزت وربّ الكعبة } ؟

أو { ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ } [2] ؟

[1] سورة الشمس الآية ٩.

[2] سورة المؤمنون الآيات ٩٩ – ١٠٠.

نور العرفان

[1] فلنرجع إلى مقتطفات من كتاب السَّحر وإلى كلمات شيخي ومولاي ومعلّمي الربّاني العارف الكبير الشيخ صادق العنقا قدّس سرّه:-

"خلاصة عقائد الفلاسفة الإلهيين الذين كتبوها في كتبهم، هو أنّهم معتقدون بأنّ الأشياء كلّها خُلقت بيد قدرة متافيزيكيّة مجهولة، في مقابل الفلاسفة الماديين الذين يعتقدون بالطبيعة أو المادة المحسوسة فقط. وأنا أعني بالفلاسفة الماديين أولئك الذين يعتقدون في فلسفة المادة، لا العلماء الطبيعيين الذين يجرون تحقيقاتهم التجريبيّة على أساس المادة، لأنّ الكثير من العلماء الطبيعيين ينتمون إلى الفلسفة الإلهيّة.

فمنذ الأزمنة القديمة، فإنّ المباحثات والاستدلالات بين هاتين الطبقتين جارية ولا زالت. فمن الممكن أن تتّخذ المادة الموضوعيّة واستدلالاتهم صيغًا متفاوتة في أزمنة مختلفة، ولكن النتيجة النهائيّة واحدة.

فمثلًا في الحضارة اليونانيّة أتى الفيلسوف اليوناني ديموكريتوس Democritus بنظريّة الذرّة التي لا تتجزّأ، وعلى أساسها قال بأنّ الأشياء تتجزّأ إلى أن تصل إلى ذرّة لا يمكن تجزئتها، أي لا يمكن شطرها إلى نصفين.

فلاقت هذه النظريّة اعتراض الفلاسفة الإلهيين، واستدلّوا بأنّه لو فرضنا ألفين من هذه الذرّات، ثم قسّمناها إلى مجموعتين، كلّ مجموعة تضمّ ألفًا من الذرّات، ثمّ وضعناها متوازيتين متقاربتين في خطّين مستقيمين، ثمّ إذا وضعنا ذرّة بين هاتين المجموعتين، فنحن نسأل ديموكريتوس Democritus إذا ما أردنا أن نوصل مجموعة إلى أخرى، فماذا يكون وضع الذرّة التي

[1] من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين صفحات ١٥١-١٥٦.

بينهما ؟ أتكون هذه الذرّة مانعة لاتّصالهما ؟ فإذا كان الجواب نعم، فإنّ الذرّة لها سطوح جنبيّة، أي أنّ لها طرفين، ولأنّ لها سطحين فيمكن تجزئتها وشطرها. وإذا شطرنا الذرّة نصفين مرّة أخرى، فهل يكون لها سطحان جانبيّان أم لا ؟ فإذا أجاب ديموكريتوس Democritus بأنّ هذه الذرّة لا تمنع اتّصال المجموعتين من الذرّات، فجوابه واضح بأنّ لا وجود لشيء بين المجموعتين.

فإذا دقّقنا في طرق استدلال هاتين الشريحتين من الفلاسفة، نرى أنّ لهما وجوهًا مشتركة في الفكر، إلا أنّ لهما طريقتين في الاستدلال.

فإنّ الفلاسفة الإلهيين يقولون:

كلّ شيء ينبع عن أفكارنا فهو صحيح، بمعنى أنّ الآثار الناتجة عن خلايا المخ صحيحة.

في حين أنّ الفلاسفة الماديين يقولون:

حواسنا هي الحقيقة، بمعنى أنّ المواد الخارجيّة التي نحسّها ونراها هي الحقيقة، وبالنتيجة فإنّ المادة أصيلة.

فهاتان الشريحتان من الفلاسفة لا تعرفان بأنّ حواس الإنسان وأيضًا أفكاره ليست حقيقة، وبالأصل فإنّ انقسامهم إلى شريحتين أو طبقتين ليس في محلّه، وكان الأجدر بهما أن تقولا نحن شريحة واحدة ولا نفهم شيئًا. لأنّ شريحة الإلهيين، بأفكارهم وأذهانهم، رجعوا إلى أوثانهم القديمة، في شكل قوّة مجهولة، في حين أنّ الماديين يعتبرون المادة أصيلة. والنتيجة المنطقيّة هي أنّ الشريحتين ترتكبان خطأً أكبر من خطأ الوثنيين القدامى.

في الوقت الحاضر فإنّ الماديين يخجلون من أن يقولوا بأنّ الله جسم، ولكنّهم يعبّرون عن هذه الحقيقة بقولهم: < إن المادة موجودة، ولكنّ الله غير موجود >، مقارنة مع الوثنيين القدامى الذين كانوا يقولون: < إنّ الله غير موجود، وإذا كان موجودًا فهو هذا الوثن >. فما هو الفرق بين الأسلوبين في الاستدلال ؟ في حين أنّ الإلهيين يقولون بأنّ < الجسم ليس الله >، ولكن هناك قوّة

مجهولة يسمّونها الله. وهذا إقرار منهم بجهالتهم وعدم معرفتهم بالمبدأ الذي يشيرون إليه بأنّه قوّة مجهولة.

وإذا فرضنا وجود هذه القوّة المجهولة بجانب ذلك الجسم، تكون النتيجة شخصًا ثالثًا الذي هو الوثن الجاهل الأكبر، الذي يحمل في طيّاته مجموعة من جهالات الإلهيين والماديين. وإنّه من البساطة بمكان، أن نفهم بأنّ الأفكار – فكرة فكرة - في هذه الفلسفات تشكّل مجموعة من الأخطاء، بمعنى أنّ الماديين لا يعرفون شيئًا عن فلسفة الإلهيين، وأنّ الإلهيين غرباء عن فلسفة الماديين.

وهذه المطالب شرحتها في كتابي "زوايا الحياة المخفيّة"، والذي هو عبارة عن أجوبة على أسئلة الجمعيّة العالميّة لبحوث العلوم المختلفة. فلقد ذكرتُ بأنّ العلماء الطبيعيين لم يعطوا مسائل ما وراء الطبيعة حقّها من البحث والتحقيق، لأنّ حجتهم في ذلك أنّ قوى ما وراء الطبيعة غير المرئيّة هي في الحقيقة من نوع المجرّدات، التي لا تُقاس ماديًّا، ولا تُعرف بواسطة القوانين الطبيعيّة الموجودة، فلذلك فَهُم يقولون بأنّها غير موجودة، أو على الأقل لا نعرف عنها شيئًا.

وعلى الطرف الآخر فإنّ العلماء الإلهيين وفلاسفة ما وراء الطبيعة في الشرق والغرب اتّخذوا أيضًا نفس النهج، واعتمدوا على الاستدلال الصرف أو على تجاربهم العمليّة، فقالوا بأنّ المادة المحدودة لا يمكن أن تكون مفتاحًا لكشف المعضلات المعنويّة المجرّدة الدقيقة، وأنّ بحوث الطبيعيين، وإن كانت مفيدة للحياة الطبيعيّة، إلا أنّها لا تصلح أن تكون معيارًا للمعرفة المعنويّة.

ولإثبات ما أقوله بأنّ الماديين والإلهيين مخطئون في استدلالاتهم وطرق انتخاب عقيدتهم، لا بدّ أن نتناول الموضوع من زاوية أخرى، ونعطيها حقّها من البسط والتوضيح، لعلّ هذا الأمر يتّضح جيّدًا.

من الثابت أنّ كلّ شيء متحرّك، فإنّ حركته تنبعث من غير ذلك الشيء. فمتى وردت طاقة محرّكة على جسم، فإنّ هذه الطاقة تؤثّر على الجسم كلّه بشكل مساوي. أو أنّ كلّ شيء

متحرّك، نقول عنه بأنّ فيه أثرًا من حياة، أو نقول بأنّ ذلك الشيء حيّ، لأنّ الحركة هي من علامات الحياة.

فمثلًا الماديّون يقولون بأنّ الأشياء مستقلّة، فلما سألتهم: <هل الجسم هي الحياة، أو أنّ الحياة تقع خارج الجسم ؟>. فيجيبون بكلّ بساطة: <إنّ الحياة تجيئ من خارج الجسم>. فما نستنتجه هو أنّ فلسفة الماديين أوّلًا ليست ملمّة بحقيقة الحياة، وثانيًا أنّها لا تعرف عن واقعيّة الجسم نفسه شيئًا.

أمّا الفلاسفة الإلهيون فيقولون في جواب هذا السؤال: <إنّ حركة هذا الجسم تتعلّق بطاقة خارجيّة تأتي من اللامتناهي>.

فإذا قارنّا هذين الأسلوبين من الاستدلال، يتّضح بكلّ بساطة بأنّ الفلسفتين في الحقيقة تقولان نفس الشيء. فواحدة تقول بأنّ الطاقة المحرّكة تأتي من الطبيعة، في حين أنّ الأخرى تسمّيها الله. ستلاحظون بأنّ اختلافهما هو فقط في استعمال كلمتين متفاوتين، وإلّا فالهدف واحد، وفي الحقيقة إنّ كليهما لا يعرفان شيئًا.

فعندما يقول صاحب الفلسفة الماديّة بأنّ الحياة هي خارج الجسم، فهذا يثبت بما لا مجال فيه للشكّ، بأنّ الفلسفة الماديّة خطأ محض. فَهُم في الحقيقة يقولون بأنّنا لا نعرف شيئًا عن الحياة، وأنّ الوجود للمادة فقط.

أمّا الإلهيون فيستدلّون بأنّ المادة لا يمكن أن توجد بنفسها، وأنّ كلّ شيء له صانع، وهذا العالم أيضًا له خالق، فلا بدّ أن يكون هو الله. وهذا النوع من الاستدلال أيضًا شيء مجهول.

فالذي أقصده هو أنّ تفكّرات الفيلسوف الماديّ أو الفيلسوف الإلهيّ واستنتاجاتهما كلّها خطأ، وكلّها تنبعث من الجهالة. فلا بدّ أن نحقّق الآن في هذا الموضوع المهمّ، وهو كيف أنّ أقوال الأنبياء حقيقة. فلقد اتّضح لنا بما لا مجال فيه للشكّ، بأنّ الاستدلالات آنفة الذكر توضح بأنّ الفلاسفة الماديين والإلهيين يقولون بأنفسهم بأنّنا لا نملك الحقيقة. فإذا جمعنا الفكرتين - الفلسفة

الماديّة والفلسفة الإلهيّة - في مكان واحد، فإنّهما لا تقولان شيئًا ما يقوله الأنبياء، لأنّ أقوال الأنبياء شيء آخر.

فالأنبياء يقولون: { إننا نعرف الله ونراه وإنّنا مرتبطون به }. فلهذا يجب أن نقول بأنّه لو كانت الحقيقة مع الأنبياء، فالمنطق الصحيح هو أنّ الذين يتّبعون أفكار الفلاسفة من الإلهيين أو الماديين، فإنّهم لا يتّبعون الحقّ والحقيقة ولا يصلون إلى الله.

دعنا نذكر حديث محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، الذي هو أحد الأنبياء بل خاتمهم وأعلمهم وأحكمهم: { كل ما ميّزتموه بأوهامكم بأدقّ معانيه فهو مخلوق عنكم ومردود إليكم }. يعني الناتج عن تمييزاتكم في أدقّ معانيها، هو مخلوقكم الفكريّ، ولا يستحقّ العبادة، أي أنّه ليس من الحقيقة في شيء. وهذا الأمر هو من الأصول والقوانين التي يجب أن تُراعى في مكتب العرفان الإسلامي في الطريقة الأويسيّة.

فلهذا يجب على الإنسان أن يعلم عن المادة، ويعلم أيضًا عن تلك القوّة المجهولة، وأن يعرفهما بمعنى أن تحصل له المعرفة والعرفان الذي يؤدّي إلى معرفة الله. فلهذا أقول الآتي: -

ألف- يجب أن ترى الحقيقة، والأدلّة لا تستطيع قط أن تُظهر لك الحقيقة.

باء- إنّ التعريفات الإسميّة والتجريبيّة هي حجاب يُخفي عنك الحقائق.

فلأضرب لك مثالًا، وهو أنّك في اليابان إذا أردت أن تذكر لأحد أوصافي بأدقّ العبارات، مثلًا تقول إنّ عدد شعره مليونان، وأنّ أذنه بيضاويّ الشكل، وأنّ لون عيونه رماديّ، وأنّ أسلوب تفكّره كذا وكذا، إلى آخره، فالذي يرسمه المستمع في خياله، من خلال الأوصاف التي ذكرتَها، ليس أنا، لأنّ ذاك الرسم مخلوق أفكار المستمع، وإذا لم يرني ذلك المستمع لا يستطيع أن يعرفني. يعني أنّ كلّ شيء نميّزه بأفكارنا وحواسنا، هو مخلوق منّا، وهو وثننا وليست الحقيقة، بل لا تشبه الحقيقة في شيء.

صحف نبيّ الله إدريس عليه وعلى نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم مذكورة في الآيات الكريمة في سورة الأعلى الآيات ١٨ - ١٩ :

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى .

ومن صحف إدريس صحيفة معاذلة النفس حيث أوحى الله عزّ وجلّ إليه كثيرًا من أسرار النفس.

وما نحن إلّا على موائد الأنبياء نقتات من أطعمتهم السماويّة والطهور من شرابهم.

نسأل الله أن يستفيد البشر من بركات هذه المائدة السماويّة

حقوق النشر محفوظة للمؤلف
www.taqimusawi.com